

دکتور صبیح فریح نبین الدینی

من الأعماق

بیت

ooboeikendi.com

إهداء

إلى الأستاذ رضوان خالد

وكيل كلية التجارة — جامعة فؤاد الأول

عزيزي رضوان :

قد تأسس بعض نواحي نفسك الطيبة في هذه القصص .

وقد تجد فيها بعض ما أوحيت فهدى منك وإليك .

دكتور حسين فرج زبون الكندي

ooboeikendi.com

مقدمة

لمحضرة الدكتور أحمد زكي الحلبي

مراقب الصحة المدرسية

في شرح الشباب وإبان الفتوة ، وفي مدينة فينا موطن العلم والمسرح
الجمال ومرتع الحب وسهيط الخيال ، عرفت منذ ربع قرن كاتب هذه
القصص ، وانسقدت بيننا صداقة وثيقة الصلات بحكمة الرباط ، مازلت
أنعم بها .

رأيت أول مرة فرايبني من أمره سمات هي مزيج من جند وعناد
ودهاء ، وإلى جانب قامة فارعة وجسم مفتول . وما استقر بي المقام وتكرر
اللقاء ، حتى استحوالت ريبتي فيه ثقة ، ورهبتني وتفاعسي عنه ، إقبالا
عليه ورغبة في وده . ولا غرابة في هذا إذ قد اجتمع له إلى خشونة
المظهر ، لطف المشر ، وإلى البدن القوي المفتول عاطفة مرهنة ومنطق
معسول ، وليت اجتماع الأضداد فيه يقف عند هذا الحد ، بل أن ماترى
على سماته من جند وعناد ودهاء هو طلاء رقيق يحجب ما انطبعت
عليه هذه النفس الخيرة من مرح ودعابة وصراحة وإخاء ، هي قوام
عناصر شخصيته .

رأيت كثير الاطلاع كثير التردد على المسارح ودور الخيالة ،

يسمى الأدب وينشئ بحالسه ما استطاع إليها سبيلا ، ولم أعجب لذلك إذ لم تلبث أن تكشفت لي فيه ناحية الأدب وميول الأديب ، وطبيعة الكاتب الذي يعنى بالقصة الصغيرة ، ويوليها رعاية ودراسة ، فهي عنده أهم أداة وخير وسيلة وآمن سبيل لأسلاس قيادة الشعوب وتوجيهها إلى جادة الخير والصالح ، وانزاعها من نزوات الشر والفساد .

أجل إنه قصصى بطبعه وسليقته ، حتى أنه ليقص عليك الخبر العادى فى إطار قصصى يسترعى السمع ويشير النفس ، فاذا هو قصة كاملة لا تخلو من عظة وعبرة ونقد وتقريض . ولا شك فى أنه كان لدراسته الأدب على عبارته ومالكى نواصيه كالأستاذة الأفاضل الزيات والممازنى والمقاد . وفى قراءته التى لا تنقطع لأساطين الكتاب الفر بين ما هذب هذه الهبة وجلاها ، أما ما يبدو على إنتاجه الأدبى عموما وعلى هذا الكتاب خاصة من مسحة غربية ، فهو لاشك بعض آثار مكثه فى أوربا زما ليس قصيرا ا كتملت أثناء رجولته وأتم فيه دراسته ، وانطبعت فى غضونه شخصيته بلون من كيفية تفكير أبناء الغرب ، وأسيلوبهم فى الكتابة والعرض يضيف على بعض قصصه الأهاب الغربى الذى تلمحه عليه - هذا فضلا عن أن أصل بعض القصص الذى يحتويه هذا الكتاب يرد إلى شائعات تتداولها الألسن فى أوربا الوسطى أو إلى ما يحكى عن بعض الآثار من غامض الأسرار .

و إذا عرفنا أن كاتب هذه القصص من أسطع علماء الحيوان فى هذا

البلاد وأغزرهم إنتاجاً في هذه الناحية وتوفراً على هذا النوع من البحث العلمي
البحث ، لأخذتنا الدهشة إذ أن القصص والأدب هما الغالبان فيما
صنف وكتب في العلوم البحتة ، وإنه لمن العجيب المطرب أن يقرأ الإنسان
كتبه : مع الأسماك ومع الحيات ، ليرى الأبحاث العلمية العميقة في إطار
من أدب رفيع وقصص رائع بديع ، ولينعم بهذه الحقائق العلمية الثابتة
في جو القصة والخيال .

وبعد فهذا الكتاب قد اجتمع له من مختلف القصاص ما يعالج
شتى نواحي النقص في المجتمع ، فيها ما يعالج مشاكل الأسرة وما ينشر
دخائل النفوس ويطب لأدوائها بأحدث وسائل علم النفس ، وفيها ما ينهيه
من نزوات البشر ويكفكف من شرورهم ، وفيه بعد ذلك العظة البالغة لمن
أراد أن يتعظ ، والعبرة القاسية لمن أراد أن يعتبر ، وفيه السمر الحلو
الشائق ، والدعابة المستملحة ، والحقائق المرة ، والواقع الأليم ، بعد الحقائق
الثابتة . وهو إن شئت بستان فيه لكل ما يشتهي من ثمرات — ولقد
كانت خاتمة المطاف « مذكرات معلم في الأرياف » ولقد كانت هذه
المذكرات من الحقيقة والواقع لا يشوبها شك ولا تنتابها ريبة ، ولكنها
غدت اليوم في ذمة التاريخ ، بفضل ما بذل لهذه الفئة العاملة ولهذا الفريق
المنتج الذي يضطلع بمسئولية عامة بعيدة الأثر من إنصاف وترضية ،

واعلم فأنه المذكرات أيضا أثرا فيما أسبغ على المعاصرين من نعمة ، وما عرف لهم من فضل .

وبعد ، فأني ما قصدت بهذه الحكمة المقتضية أن أتكلم عن العالم الأديب ، بل إنما أذكر أيام من الشباب سلفت واعتراف بنعمة صداقة ما زلت حريصا عليها ، وبفضل صديق أنا به معتز فخور .

محمد زكي الحفني

الرقص فوق الأعماق

كلما أطلت النظر في الأعماق . . .

تطلعت إليك هذه الأعماق . . .

كنت أقطع أحد شوارع القاهرة فاعترضتني فجأة سيارة كادت
تدهمني لولا أن وقفتها سائقها بمهارة وسمعت من داخلها صيحة فزع
لم ألبث أن عرفت فيها صوت صديقى عباس الذى ابتدرنى قائلاً :
الحمد لله — كنت على وشك أن أقتل عزيزاً ؟ وفتح باب السيارة
ودعانى إلى جولة ممتعة في الخلاء وترك لى اختيار المكان الذى نجلس
فيه . اقترحت نزهة إلى الأهرام نجلس بعدها فى أحد المشارب
القريبة من تلك الأبنية الشاهقة التى تطل على القاهرة الجميلة وكأنى بها
تقص عليها فى همسات قصة الماضى الجميد . . . كانت آثار النعمة بادية
على هذا الصديق . وقد عرفته أديباً مثلى لا يقنع من الحياة ونعمها إلا
بالفرج على واجهات المحال والتحسر شأن الحسناء الفقيرة وهى تقطع
شوارع القاهرة جيئة وذهابا ، وكان آخر عمهدى به يوم أن انخرط معنا
فى سلاك جماعة الأدب الرفيع ، ولم أره بعد ذلك اليوم وقد اختفى عنا
ولم يحضر اجتماعاً واحداً لهذه الجماعة ، وهأنذا أراه اليوم أمامى أقلب فيه
ناظرى فى دهشة وهو يقود سيارته الفخمة فى بزة على أحدث طراز
يحسد عليها وقد تدلى منديله الحريرى وراحت الكرافتة تميل
وتتطاير مع النسيم العليل ، ولم أكن قد رأيت فى هذه النعمة فناجيت

نفسى : « ما شاء الله — لعل صديقى الأديب هبط على عجوز شمطاء فتزوجها ثم خنقها أو قتلها بطريقة شيطانية لم يكشفها رجال المباحث الأذكياء وآلت إليه أموالها الطائلة ، أو لعله ورث هذه الثروة العريضة عن عم أو خال أو قريب مات فى أمريكا الجنوبية أو الشمالية أو فى سيبيريا أو فى بلاد تتركب الأفيال .. ولكن صديقى لا يمت إلى الفينقيين بسبب ، فهو صييدى قح لم يتخلص بعد من لهجة أهالى مقاطعة شبروط و منفوط ... ناجيت نفسى بهذا وبأكثر من هذا ولكنى لم أستطع أن اقنع نفسى بما يرضيها عن مصدر هذا الثراء الواسع الذى هبط على صديقى الأديب ، فقد أستطيع أن أفهم أن مخلوقا من مخلوقات الله أثرى من أى عمل إلا من تجارة الأدب !! وأخيراً هجس فى صدرى أن صديقى قد يكون جاسوساً يعمل لحساب إحدى الدول الكبيرة ! ولقد شاع السرور فى نفسى حين اهتديت إلى هذا الكشف !!!

لم يطل تفكيري لأن صديقى كان من الذكاء بحيث لم يدعنى أسترسل فى التفكير إذ قطع على حبله وقال « لن أجد عناء كبيراً فى قراءة أفكارك وأحسبك تود لو تعرف شيئاً عن سيارتى وقميصى الحريرى ... » وتوقف عن الكلام وأخرج علبة سجائر ذهبية وأردف « سأحدثك يا صديقى عن كل هذا ... خذ سيجارة عظيمة وأحب قبل أن أبسط لك حديثي أن أسألك عن جماعة الأدب الرفيع ؛ وهل لا زالت على نشاطها تغذى سوق الأدب بالطريف والتالذ ؟ » . قلت « إن من الخير ألا نتحدث عن الأدب الرفيع ؛ فقد أتيتح لنا ما هو أجدى وأنفع ،

إذ عكفنا — منذ غيبتك عنا على دراسة فوائد الفقر والجهل والمرضى !
وسترى عصارة أبحاثنا مدونة في مؤلفات تشيع بين الناس ليتبينوا منها خطأهم
في فهم هؤلاء الأعداء الثلاثة ، فلا يعودوا لمحاربتنا ! »

وقاطعني صديقي قائلاً « كفك تهكماً ! فليس هذا شأن من يبحث
عن المجد في ظل الفقر ! » ثم ضحك ضحكة ساخرة . وكنا قد وصلنا إلى
أحد المشارب وكان الهرم الأكبر يشرف علينا وقد ربض إلى جانبه
أبو الهول الذي ظل مضرب الأمثال في الصمت ، ولكنني حسبته هذه
المرة راغباً في الخروج عن صمته ، وشعرت كذلك أنه يريد أن يضحك
ضحكاً عالياً فيه سخرية . استرحنا قليلاً وشعر صديقي أنني أشوق
ما أكون إلى سماع حديثه ولكنني بدلاً من أن يتكلم ابتسم في شيء
من الخبث وراح يرسل إلى نظرات فاحصة لم أستطع صبراً وقلت له
« أنى أمقت هذه النظرات التي تفحص بها ملابسى ، ولا أخفى عنك
سراً — بل أصارحك بأنى مفلس كما كنت أنت في العام
المنصرم » — زبت صديقي على كتنفى في كثير من المودة وقال لى
« أراك عصبياً يا عزيزى ولكن أسمع حديثى . . . لست في حاجة
لأن أقول لك إن حالى قد تغيرت وتبدلت بعد أن هجرت أدبك
الرفيع . لقد كتبت « موكب العباقرة » وعرضت فيه لجوته العظيم
وتولستوى نصير الفقراء وكتبت كذلك « الرقص فوق الأعماق » وكتاب
« القافلة تسير » ورحت أعرض هذه البضاعة في سوق الأدب وأنت
تعرف ما تقاسى في سبيل هذا النوع من الكتابة الذى يتطلب منا سهرًا

طويلاً ونظلاً نكابد ونعاني وننفق في سبيله ثمن ما نقيم به الأود . . .
فالمراجع التي نشترىها نقتطع ثمنها من قوتنا اليومي وحين نعرض على الناشر
الكتاب يقلبه ويقول أن أغنياء الحرب يا سيدي وهم الآن القراء الوحيدون
في هذا البلد لا يستسيغون هذا النوع من الأدب الرفيع جداً ! أكتب
لنا عن المفاجآت والقتل والحرق والنصب والغواية . . . تريد حوادث
يا سيدي !! ثم ينظر إلى في ابتسامة ويقول لي وهو يطيب خاطري
أنه أدب رفيع جداً وفي استطاعتك أن تنقله إلى إحدى اللغات الحية
في أوروبا وأستراليا وجزائر النار . فهناك قراء يفهمونه ويقدرونه . . .
والعل الناشر نسي أو تناسى أنني لا أستطيع أن أنقله إلى لغات الغرب
بعد أن نقلته عنها . . . وظل الفقر حليفي ولم أشأ أن أتخلى عن بضاعتي
من الأدب الرفيع ونسيت أن كل القراء أغنياء حرب وأدعياء علم
لا يستسيغون أدبي ولا أدب غيري . ثم عضني الفقر بناه وضقت ذرعاً
بهذا الأدب الرفيع . ولم أعد أطيق النظر إلى واجهات المحال وهي تعج
بشتى الضروريات والكاليات ولا حيلة لي في شرائها ، وكرّمت النظر
إلى السيارات العامة والخاصة ما دمت لا أجد السبيل إلى ركوبها وهممت
أكثر من مرة أن أحطم زجاج أحد المحال . لأختطف منه شيئاً ، ولكن
لأطفئ نار الثورة المستعرة بين جوانحي !!! وكذلك كدت أقتل أحد
الناشرين لولا أنني رأيت أن الرجل معذور . . . فإن قراءه أغنياء حرب .
وأخيراً فكرت في قصص المفاجأة والقتل والحرق والغواية . وقلت
لنفسى ماذا يضيرني في ذلك . أنني لا أقتل ولا أحرق أحداً ولكني

أترك الناس يقتلون أنفسهم أو يقتلون غيرهم ويحرقونهم في قصص .
وكتبت أول قصة وأنى أعتز بها لأنها أول قطرة انبها بها السيل
على من مال وثناء وشهرة فقد عرفنى الجميع — الجزار الغنى و بائع الدجاج
المثرى والحسباء نصف الجاهلة — عرفنى الجميع — بما يطلع عليهم من
قصصى فى دور السينما أو ما يذاع من أغانيها فى الراديو . أما قصة « الرقص
فوق الأعماق » و « موكب العباقره » و « جولة فى المريخ » وغير ذلك
فأقسم لك أنى أحرقت كل هذه غير آسف ومحوت الفقر . . . ومن
عجب أن شبحه اختفى عند ما ودعت الأدب الرفيع ! ! ولكننا
يا صديقى فى شمال أفريقيا أو قل فى وسطها ، هذه القارة المظلمة ، وهالك
هذه القصة التى استقبلت بها الأدب الرخيص وكانت فاتحة عهد
جديد فى خيالى فسعى إلى المال والمجد . . . »

وأمسك صديقى عن الكلام ثم عاد يقول « جلس البارون (م)
أو (ل) أو أى حرف آخر فى غرفة مكتبة يطل على مزارعه الواسعة فى
أية مقاطعة من بلاد الله العامرة بالبارونات . ولا يهمنى هنا يا صديقى
أن نقرأ فى مراجع ونشترى الكتب وندفع فيها ثمناً غالياً ونقترض من
أجل ذلك فهذا النوع من القصص فى غنى عن التاريخ والجغرافيا كما
ترى . . . جلس هذا البارون وكان فى عمده الرابع ولا أقول الخامس
فأنى أريد أن يحتفظ الرجل ببعض شبابه وفتوته . ومادام بارونا فلا حاجة لى
لأن أقول إنه أنيق الملبس فارع العود واسع العينين جميل رغم ما يبدو
على وجهه من شحوب وحزن وكآبة . كان البارون يفكر حين دق

الباب ودخل وكيل أشغاله وانحنى أمام سيده وقال في أدب جم وصوت يكاد يكون ههساً « لقد حضرت أرملة وممها ابنتها تريد أن تستأجر البيت الأخضر » ورفع البارون رأسه في حركة يفهمها البارونات وخدمهم ولا بد أن يتعلمها الممثل المسكين في هليود بأمر يكا وشركة النجم الأصفر في بركة الفيل ويعانى هذا الممثل البائس في ذلك الكثير لأنه ليس بارونا. رفع البارون رأسه وقال في سامة « أغرب عن وجهي أيها الوقح لقد أخبرتك أكثر من مرة أن هذه الإيجارات لا تهمني في كثير ولا قليل وهي من صميم عملك وأنت تعرف كذلك أني لا أحب أن يذكر أممي شيء عن النساء » — تراجع الرجل المسكين إلى أن اصطدم بالباب وانحنى وفتحه واختفى — وهذه حركة أخرى يجيدها الممثل في أمريكا وأفريقيا لأنه قبل أن يحترف التمثيل يتراجع حتى يصطدم بالباب أمام رئيسه أو زوجته أو حماه . كان البارون برما بحياته ، وقد جلس هذا الصباح ينظر في حسرة إلى لوحة نقشت عليها شجرة النسب لأسرته العريقة التي نيفت على قرون سبعة — شجرة كانت باسقة وهي الآن عقيم لا تثمر بعد أن أصبح المسكين يعاف النساء من نكبة عائلية . والبارونات يصابون عادة بنكبات عائلية . فالبارونة لا تعمل شيئاً طيلة يومها والفراغ يمضيها والوحدة تضنيها . وما عساها تعمل في يومها ولها خدم كثير ووصيفات ، فهي تدخن لتشغل وقتها وقد ترسم أو تقرأ أو تستحضر من يقرأ لها ثم تراقص في المساء من تشاء وتشرب الخمر مع من تشاء . والمعجبون عديدون ؛ ثم هي تترك الخليل وتخرج إلى الصيد في جماعات

من بنى آدم وخبول وكلاب ، ثم هى تضل الطريق ويضل معها فارس
ويختلئ بها فى الغابة ! وقد يكون ذلك مدبراً فيما بينهما . فيكاشفها
الفارس المصور فى هذه الخلوة حبه وغرامه وتكاشفه هى الأخرى حبا
وغراما ؛ ثم تعود ويعود معها هذا الفارس إلى الجماعة بعد أن تعاهدا
على الحب والفرار للتخلص من هذه الزوجية المملة . . .

فكر البارون فى زوجته التى فرت مع عشيقها إلى بلد آخر من
بلاد الله وشركات السينما تحب التغيير والتنقل ولا بد أنهما ذهبا إلى
(فينسيا) أو بلد آخر جميل وهناك الجندول والرقص والحمامات فى
(اليليدو) . . . فرت هذه الزوجة مع هذا المشيق ولا بد أن يهجرها
ويتمكر لها بعد أن أصبحت تمثل معه دور الزوجة ، فهى لا شك قد
طالبت هذا العاشق المفتون بأن يتزوجها . . . فكر البارون
فى هذه الزوجة التى فرت وهى تحمل فى أحشائها جنيناً كان منتهى أمله
أن يخرج إلى الدنيا فى هذا القصر العامر الجميل ولكنها فرت مع ذلك
الرجل الذى عاش معها زمناً غير قصير فى فينسيا الجميلة ولا بد أن تكون
مناظر فينسيا حبيبة إلى قلوب رواد السينما وماتت الزوجة الخائنة فى
المستشفى بعد أن هجرها عشيقها وعرف زوجها البارون أنها قضت نحبها
وتبعثها طفلتها بعد وضعها بيوم أو يومين . . . وهذه المرأة خائنة ، ولا بد
أن تكون كذلك ، ما دامت قد فرت مع عشيق ، ولكن الحياة التى
عاشتها هى التى دفعتها إلى ذلك . فهل نستطيع أو نستطيع غيرنا فى
القصص حملها على شغل وقتها فى المطبخ وفى تربية الأولاد كما تفعل

نساء الطبقة الوسطى ؟ فكر البارون في هذا الماضي المؤلم ونظر إلى شجرة النسب في حجرة بالفة ثم حمل أدوات الرسم من ألوان وفرش وخرج يضرب في غاباته الواسعة ، فهذه مناظر جميلة تختلف عن مناظر فينيسيا لولا أن أملاك البارون الواسعة فيها بضعة جداول صافية . وكان الرجل يحب الرسم وهو سلواه الوحيدة في هذه الوحدة القسالة ، وكان يكره النساء منذ أن نكح في زوجته . وعرف الناس عنه ذلك فلم تحاول امرأة أن تعترض سبيله وهو في طريقه إلى حيث يخلو بنفسه ليرسم . . . و بعد أسابيع على هذه المقابلة الجافة بين البارون ووكيل أشغاله دهش البارون لوقاحة فتاة جلست في غير مهابة تحت شجرة صفصاف وارفة الظل لامست أغصانها المتدلية سطح غدير ينساب بين هذه المروج اليبانة . جلست هذه الفتاة ولم تحاول أن ترفع رأسها الجميل عن لوحة الرسم التي أمامها . ودهش البارون وحق له أن يدهش لجرأة هذه الفتاة ولا بد أنه يفعل ويحتاج ويعود أدراجه . واهتم أيما اهتمام بهذا الحادث الذي طالعه لأول مرة من سنين عديدة ، وفزع الخدم ومن إليهم لغضب سيدهم وحقق البارون ودقق ثم عرف البارون أخيراً أنها ابنة الأرملة التي استأجرت البيت الأخضر . كان غضب البارون بالغا لهذا الحادث المفاجيء واسكنه ؛ رغم ذلك لم يحاول أن يصدر أمراً إلى خدمه ليطردوها ويعكروا عليها صفو هذه الخلوة الهادئة وهي تعمل برئيتها . ولعله فعل ذلك لأنه عثر في هذه الوحدة الخائقة على من يشاطره هذا الفن الجميل ، أو لعله فعل ذلك لأمر خفي عليه لم يدرك مصدره !

قفيل البارون راجعاً ووقف على مقربة من هذه الفتاة وطفق
يختلس النظرات إليها وكانت جميلة حقاً وقد افترشت العشب الأخضر
ورنت إليها الأزهار البرية تختلس إليها النظر كذلك . وقف البارون
مشدوهاً أمام هذا الجمال الرائع وساءل نفسه : كيف انحدرت هذه
الفتاة الجميلة من أسرة متوسطة ليست لها شجرة نسب عريقة؟ ثم اقترب
منها رويداً كأنها تجذبه إليها جذباً؟ والرجل في عقده الرابع ولا يزال
يجرى فيه دم الشباب ولا يشغل نفسه في عمل مضن كما يفعل رجال
الطبقة المتوسطة . وكانت الفتاة جميلة حقاً ولا بد أن تكون كذلك لأن
رواد السينما يحبون أن تكون البطلة جميلة وجميلة جداً . ظل البارون
يقترّب من الفتاة إلى أن أصبح أمامها ونظر إليها فإذا هي قطعة فنية
نادرة؟ والبارونات يحبون القطع الفنية النادرة . فهم يدفعون مثلاً ألف
جنيه في طابع بر يدقدهم ، ثم هم كذلك يدفعون أكثر من هذا في شجرة
لا تثمر شيئاً ولعلمهم لا يدفعون ماياً واحداً في شجرة جميز رقد تحتها
(ايزوريس) آله الخير والبركة ؟ أدار البارون بصره إلى اللوحة
وسجل يحدق فيها ولم تحاول الفتاة أن ترفع بصرها إليه بل راحت تعمل
بريشتها في غير اكتراث . ثم حول البارون نظره إلى الفتاة وقال لها :
« كيف تجاسرت على الجلوس هنا ؟ » ثم ابتسم وأردف « لقد حرمت
على الجنس اللطيف ارتياد هذه الأنحاء » . لم تجب الفتاة بحرف واحد
وعاد البارون يحدق النظر في وجه هذا الغزال الشارد ولكن الفتاة لم تعر
نظرته اهتماماً وجمعت أدوات الرسم وألقت عليه نظرة فاترة وانصرفت...

وكان اليوم الثاني من هذه المقابلة الجافة واقترب البارون من فنتاه
ولكنها كانت في هذه المرة مرحلة بعض المرح وحياتها البارون بالحناءة
قصيرة وقال لها في أدب البارونات أنه يجب الرسم كما تحبه وهو هوايته
الوحيدة وطفق يتكلم عن أشهر المصورين والفنانين وتكلم كذلك عن
أشهر المصور في متاحف العالم وانتقل بعد ذلك ينقد صورتها نقداً بارعاً .
ولكن الفتاة لم تعقب على كل ذلك بكلمة واحدة وجمعت أدواتها
وانصرفت بعد أن حيته بالحناءة قصيرة ... وكان اليوم الخامس وكانت
الفتاة قد غيرت مكانها واستبدلت به مكاناً آخر بين أشجار البلوط
العتيقة ولعلها أرادت هذه المرة أن تجر البارون إلى مكان بعيد عن الرقيب
والعذول . فهي قد لمست عاطفة الرجل الجمحة وأرادت أن تستوثق من
حبه لها . وجعل البارون يبحث عنها وراح يهيم على وجهه إلى أن التقى
بها في هذه الخلوة الشاعرية وكانت تتبع بنظراتها (الكوكو) وهو
يفازل صاحبته في حنان ودعة . كانت الفتاة تراقب حركات الطائر
المفتون في غبطة وسرور إلى أن قطع عليها البارون هذه الغبطة وهذا
السرور بظهوره المفاجيء . وكان قد اختفى وراء جذع بلوطة وخرج
عليها وهو يقول : « اسمحي لي أن أجلس إلى جانبك وثق أنني
لا أضايقك » وأخرج أدوات الرسم واللوحة وجعل يعمل بريشته .
وكانت الفتاة تنظر إلى لوحته في إعجاب شديد وقد طفحت عيناها بالبشر
وبدت على أسايرها آيات من الحب ناطقة بما تكن لهذا الرجل من
عاطفة قوية .

كان البارون ماهراً في فنون الغرام مهارته في الرسم وقد يكون تعلم ذلك وحذقه على أستاذه (الكوكو) الصغير . وكانت نظراته وابتساماته ؛ وكانت قبالاته . ولكنه لم يذهب معها في هذا الفن بعيداً . وخلالها على هذه الحال ينعمان بنوع من الحب البريء بين أحضان الطبيعة ومن حولها الزهور والأطيوار . وكان طائر (الكوكو) المقترون في هذه المرة يرتو بدوره إلى العاشقين يتعلم منهما ما فاته من غزل وشيام . وكانت الفتاة جريئة حقاً وهي تقول لحبيبها : « لقد عرفت أنك تكره بنات جنسي وأمل هذا ما حبيبي فيك » فأنا أتوق إلى المقامرة في الحب وأرغب عن انصياد السهل .

وكانت مقابلات كثيرة فقد واثت الفرصة البارون وفتاته . فسافرت الأرملة لبعض شأنها ثم عادت بعد أسبوع أو أكثر وطلبت مقابلة البارون على انفراد . ولما تم لها ذلك صارحته قائلة « أنها نزلت مريضة في أحد المستشفيات في فينيسيا وتصادف أن كان إلى جوار سريرها سرير زوجته ، وأنها وضعتا طفلتين في ليلة واحدة . وبعد أسابيع ماتت البارونة ولم تمت طفلتها كما أشيع ، بل ماتت طفلتي ، وكانت قد توثقت بيني وبين البارونة المسكينة صلوات ود وإخلاص وباحث لي قبل موتها بكل ما عانت مع عشيقها . ثم عهدت إلي وهي تعالج سكرات الموت أن أقوم على تربية وحيدتها ورعايتها كما لو كانت طفلتي ، وسامتنى قرطاً من الماس وهي تقول لي في صوت خافت كأنه الممس « تعهدى هذه الطفلة بعطف الأم وحنانها وما أحسبك إلا فاعلة .

حتى تكبر ويشند عودها ولا تبوحى لها باسم أبيها إلا بعد أن تمهدى
لذلك بمقابلات ، ولا تخبرى أباهما هو الآخر بشيء عن ابنته حتى
تستشعري فيه حب الأبوة لأنى أعرفه وأعرف أنه يكن لى الكره وقد
يكره كذلك هذه الطفلة البريئة من أجلى » وهكذا قد بررت بما
عاهدت عليه هذه المسكينة وهى تجود بأنفاسها الأخيرة فقد نشأت الفتاة
خير تنشئة ولم أفض إليها بشيء عن ماضيها . وهالك القرط ولعلاك عرفته
وها هى ذى ابنتك أردتها إليك ... والله يعلم أن فراقها قد يحز فى نفسى
ويذهب بعقلى .

نظر البارون إلى القرط وقد أخفى النزاعه وود لو كذبتة عيناه فلا
يرى فى هذا القرط هذه الحقيقة السافرة . كادت الأرض تميد تحت قدميه
وهم أن يبطش بالأرملة فخائته قواه وتمالك على مقدمه وود لو أنها باحت
للفتاة وأبيها بما تعلم حتى لا يندفعان فى هذا الحب المحرم . . . وسرعان
ما عادت به الذاكرة إلى زوجته الخائنة فثارت عليه من جديد رغبة الإقتقام
من زوجته فى شخص ابنتها . . . هذه الرغبة التى ظلت كامنة منذ فرار
زوجته وعشيقها ولم يستطع إذ ذاك اللحاق بهما فيقتلها ويمحو عن اسمه
هذا العار . وهنا اكفهر وجه البارون وظهرت على أساريره أمارات الحنق
والغضب واعتزم أمرا أسره فى نفسه بعد أن صرف الأرملة بايمساء فاترة
دون ما تحية . . .

قصد البارون فى هذا المساء إلى البيت الأخضر وكانت السماء ملبدة
بالغيوم والقمر فى صراع دائم مع السحب القائمة التى لم تلبث أن حجبتة

فلم يتح له أن يشهد خاتمة هذه المأساة وعصفت الريح وقصف الرعد
إيداناً بزوبعة مروعة قد يعقبها سيل من المطر يجرف ما تساقط من
أغصان وأوراق ..

اعتدل عباس في جاسته ونظر إلى قائلاً « ألا ترى معي أن
منظراً كهذا لو أخرجته مصور سينمائي بارع لآثر به في نفوس رواد السينما
حتى لو لم يكن لهذا المشهد أدنى علاقة بموضوع القصة ؟ » ثم عاود
حديثه فقال « دخل البارون البيت الأخضر هذه الليلة وفي نفسه ما فيها
من ثورة مكبوتة وظل وقتاً غير قصير إلى جانب ابنته هادئاً ساكناً ولم
تفهم المسكينة سر هذا المدوء، ولم تحاول أن تسأله إلى أن غلبها النعاس .
فانسل من الغرفة وأغلقها وأخذ معه المفتاح . واستحضر مشعلاً وهم أن
يضرم النار في البيت وإذا بالأرملة تظهر فجأة وكانت تراقبه عن كذب
وأخذت تصرخ « ابنتي ؟ ابنتي ؟ »

بهت البارون لهذه المفاجأة والتفت إلى الأرملة في نظرات متسائلة
وقال « حسبها ابنة تلك الخائنة ؟ ... ثم تراجع وألقى بالمشعل بعيداً .
فلم يلبث أن هدا روع الأرملة بعد أن أيقنت بنجاة ابنتها من موت
محقق ، وطفقت تقص على البارون كيف أنها توصلت بهذه الحيلة إلى
إيهامه أن الفتاة ابنته في حين أنها لا تمت إليه بصلة وأنها هي ابنتها
وأبرزت له شهادة ميلادها وهي كأم أرادت أن ترى ابنتها في رغد من
العيش تحت كنف أب واسع الثراء مثله وما قصة القرط الذي وهبته
البارونة لها جزاء خدمتها لها قبيل وفاتها ، إلا أ كذوبة أرادت

بها حبك ادعائها : أما ابنته فقد لحقت بأبها بعد أسبوع من موتها
وهنا هدت ثائرة البارون وألقي للأرملة بمفتاح النرفة وعاد إلى قصره
وبات ليته يفكر في هذه الحادثة التي كادت تنتهي بمأساة أليمة تذهب
فحيتها تلك الحبيبة الودعة التي لم يكن يحسن إيماناً في محبتها .
انقضى على هذه الحادثة بضعة أسابيع كان البارون خلالها يحاول
كبح جماح حبه للفتاة فاستعصى عليه أمره ولم يجد بداً من الزواج منها .
فكان له ذلك لأن الفتاة كانت تبادله حباً بحب فعاشا في هناء وكم كان
يبسم لشجرة النسب وقد تدلى منها فرعان جديدان بعد أن ظلت عتياً
زمناً طويلاً .

سكت صديقي برهة ثم عاد يقول « وأقسم لك أن حوادث هذه
القصة صادقة لا ريب فيها على أني لم أكن لأهتم بهذا النوع من
القصص الساذج لولا أن الناشر أطرى حوادثها الأولى فقد ملكت عليه
حواسه وهو يتصفحها في غير ملل ويقول « مرحى — مرحى يا أستاذ !!
لقد سموت بالقصة إلى الكمال ؟ » وما أتى على الخاتمة حتى أمسك عن
المدح وقال « لو كنت مكانك لحرقت البيت الأخضر وأسमित القصة
« البيت الأخضر يحترق » ولبعثت للأرملة عن حادث يودى بحياتها
وينتحر البارون في مستشفى للمجاذيب ... والأغاني يا سيدي ... ألسنت
مهي في أنه يحسن بك أن تنظم لنا بعضها ؟ !! أشودة مثلاً في أنواع
وفوائد الشكولاته وأخرى في صناعة الصابون وثالثة في مخلات الخيار
واللفت !!! لأنك لا بد قد لاحظت أن قصص السينما لا تخلو من هذا

التجديد في الموسيقى والغناء ! ! » فأجبت في احترام « لك يا سيدي
أن تقتل من تشاء في قصتي ! ولك علي أن أبحث لو كليل أشغال البارون
عن ميتة لا بأس بها كما لا مانع البتة في قتل المؤلف نفسه إن كان هذا
يرضيك ويرضى قراءك ! » .

نهض صديقي عباس وركبنا السيارة وما أن بلغت منزلي حتى
ودعني وقال « لا تنس يا صديقي أن تحرق ما عندك من الأدب الرفيع
إن أردت أن تهبط عليك الثروة والجاه العريض » .

فأجبت « لعلك نسيت أن في العالم من لا يزال يبحث عن الحمد
من طريق غير هذا النوع من المال الذي هببك عليك ! » .

ومعذرة أيها القارئ الكريم إذا أنا انتهت تقصتي هذا الاسم
« الرقص فوق الأعماق » الذي لا يصلح لها ولا هي تصلح له، وإنما فعلت ذلك
لأغرض بالأديب الحق فيقرأها وأفوت على أغنياء العرب فيصدقوا عنها ما

مصراع امرأة

تزوجت في قنا مستقط رأسي من فتاة رقيقة الحال ، شاركتني حياتي بأفراحها وأتراحها وحلوها ومرها ، ثم أنجبت لي ابنتي «السيدة» فاستقبلناها بفرحة عظيمة وأدخلت علي حياتنا بهجة وسعادة ، فضاغت من كدى وجدى لأهبيء لأسرتي الصغيرة الوداعة أسباب العيش ولأرضي زوجتي الشابة التي كانت تميل إلى الانفاق عن سعة لا يتحملها رزقي المحدود البسير مما كان يسبب لي إرهاقاً ونصباً ، فكثيراً ما كنت أقوم برحلات شاقة خطيرة تستدعي تغيبي عن داري بضعة أسابيع كنت أجوب فيها أرض الله باحثاً منقباً عن الثعابين الخطرة كالناشر ولقد أظل الساعات الطوال أمام أحد الشقوق على جوانب الترع أتربخ خروج هذا الثعبان الخفيف حتى إذا ما طال انتظاري عمدت إلى فأس أحفر بها هذا الشق لأرغم ساكنه على مبارحته لأن الحاوي منا لا يستطيع صيد هذا الثعبان إلا إذا كان في الخلاء فيضيق عليه الخناق ، وما يزال به يلقيه طرف عصاه حتى يفرغ الثعبان سمه فيمسك به دون خوف . وقد أدخل المقابر القديمة والمغاور لاصطياد البخانخ ، ذلك الثعبان الخطر الذي يتربص داخل حجرة ، ويقذف سمه على عين الفريسة فلا يخطيء هدفه . وكنت أعرج على الصحارى أجوس خلالها فكان الموت يترصدني تحت الرمال حيث اندست المقرنات الخبيثة طوال نهارها ولم

يظهر منها إلا قرونها التي تشبه الديدان . واطالما أخذت الطيور بهذا المظهر فوقعت على هذه القرون لتلتقطها فتتنقض عليه الأفاعى وتسممها وتلتهمها . وتظل المقرنات على هذه الحال حتى إذا غابت الشمس خرجت من أجسامها غشى جحور اليرابيع وتفترس صغارها . وكثيراً ما كنت أتعقب (البرجيل) فى هذه المنطقة ، فأمضى سحابة يومية دون أن أظفر به لأنه نادر الوجود ، وهو لهذا ثمين أتقاضى فيه أجراً طيباً .

وقد ينتهى بى الطواف إلى شواطئ البحر الأحمر باحثاً عن الأفاعى الخطيرة كالغريبية وأضرابها ، فأذا ما عدت من جولاتى متعباً مكثوداً قابلتني زوجتى بالبشر والترحيب فيسعدنى لقاءها وأضع بين يديها كل ما حباتى الله من رزق حلال .

وكان من عادتى كل مساء أن أخرج لقضاء بعض الوقت فى مقهى مقابل لدارى أروح عن نفسى بما أسمع من حديث القوم ، فلنت نظرى ذات يوم تهامس الجالسين وتغامزهم كلما أقبلت عليهم ، فحملت ذلك على أنهم يتسامرون بحديث ثعابينى التى أصبحت معروفاً بها . . . ولم يكن مما يدهشنى أن أرى من مجلسى بعض النسوة يدخلن إلى دارى متشحات بأثواب الضافية تكسوهن من الرأس إلى القدم ؛ وإنما كان يأخذنى العجب من أن ترتفع عندئذ ضحكات الجالسين وأسمع دعاباتهم التى لا تخلو من قيحة وأحار فى تأويلها !

وكنت أحياناً أشعر بضيق وضجر من تصرف القوم فأترك المقهى إلى دارى فما أكاد أدخل حتى تبادرنى ابنتى قائلة :

« أن في الدار ضيوفاً يا أبا . . . جارتنا فلانة وصديقة معها » .

فأعود أدراجي حتى تنصرف النسوة ، فما كان لنا أن نجلس أو ترفع
البصر إلى نساء غير نساتنا ؛ هكذا عودنا أهلونا وهكذا قضت عادتنا
بغية الخير والصلاح . . . وأبقى بالمقهى يراود النوم أجفاني فأغفو لحظة
أستيقظ منها على ضحكة ساخرة أو دعاة قدرة من سمار المقهى . . .
حتى إذا ما حضرت ابنتي لنعود للدار بعد انصراف الزائرات تبعثني
ضحكات ونكات لا أدرك لها معنى ولا تأويلاً

وحدث ليلة أن تأخرت في مجلسي حتى انصرف القوم جميعاً ، فجاءني
صاحب المقهى واتخذ مجلسه بجواري ، ثم أمسك بكتفي يهزه في رفق
ويقول لي في صوت خافت متردد :

« أما أفقت من غفلتك يا شيخ عمران ؟ ! ! أن امرأتك تحونك
وتستقبل عشيقها كل ليلة في دارك ، فيدخل إليها أمام بصرك في زى النساء
بصحبة عجوز لعينة ! إنك رجل صالح طيب القلب يا شيخ عمران
وامراتك تستغل طيبتك فتسخر بك . . . وقد آلمني أن تصبح غفلتك
حديث القوم وأن يثلم عرضك وأنت في ظلام الجهل ! وقد اختلفنا
بين راضب في تنبيهك ومؤثر للكمان خشية سوء العاقبة ؛ ولكني
آثرت أول الرأيين لعلمك تتدارك الأمر بحكمة وروية دون أن تنسى
القول الحكيم بأن النساء « عوج يعدهن الطلاق » . . . وأخذ الرجل
الطيب يشد من عزمي وينصحنى بالحزم والتعقل ويذكرني بطفليتي

وحاجتها إلى رعايتي ، ويحذرنى من الحماقة التي قد تدفعنى إلى إتيان ما لا
تحمد مغيبته !

ودعت الرجل بابتسامة باهتة شاكرًا له صراخته حامدًا له حسن
نصحه . وقد دهش كما دهشت من نفسى لما لازمنى من هدوء طول
الوقت لعله كان نتيجة للصدمة التي أذهلتنى ! وجرت قدمى جرًا إلى
الدار وقد تولانى وجوم عجيب ، ودخلت على امرأتى باسمًا هادئًا ملاطفًا
بينما كانت تستعير فى نفسى ثورة جاحشة نفي أوارها النوم عن عيني ، وقضيت
الليل أقلب الأمر على وجوهه وأعاتب الأقدار على فعلها وقسوتها ، وأخذت
الثورة تتأجج فى صدرى حتى همت فى الهزيع الأخير من الليل الساكن
بمخفق تلك المرأة الفاجرة ، وإذا بصوت طفلى ينادى طالبه شربة ماء
فيذكرنى صوتها بها وقد كدت أنساها فى ذلك الخضم المتلاطم من
الهواجس والأفكار ، فلغنت الشيطان الذى أنساها واستهديت الله
سواء السبيل وابتهمت إليه خاشعًا أن يهدينى سبيل الرشاد فى محنتى ...
وإذا بصوت المؤذن يؤذن لصلاة العجر فيشق سكون الليل ويبعث إلى
قائى هدوءًا وسلامًا ، فاتجهت إلى الله فى صلاتى بتوسلات حارة وعينين
دامعتين وكأن هاتفاً هتف فى أعماقى أن صوب سلاحك ولا تطلقه
واتعمل إرادة القدر وعدالته فتصيب من هو بالمعقاب أجدر وللجزاء
أحق !

وأنعمت الفكر فى تدبير الخطة وشرعت فى تنفيذها فى الصباح
فزعمت لزوجتى أنى مسافر ليومين أو ثلاثة ؛ وبينما كانت تجهز لى

بعض لوازمي عمدت الى قاعة الثعابين وأخرجت منها إحدى الأفاعى المسماة (الثريبية) ودسستها بين طيات الفراش وأغلقت الحجرة وجمت زادي وانطلقت من الدار أطوف البادية على غير هدى حتى غابت الشمس فعدت الى المقهى وانتحيت ركناً منعزلاً بعيداً عن أعين الجالسين ولم تغتنى هذه المرة همسة من همساتهم أو إشارة من إشاراتهم ولكنني لم أبال كعادتي . وكما ضاق صدري اتجهت ببصري الى السماء هامساً بصوت أكاد لا أسمعه « لتكن شيتتك . . وإرادتك يا رب ! »

وإن هي إلا برهة وجيزة ، وإذا بباب داري يفتح في عنف وسرعة ويندفع منه رجل فارع الطول يهرول في بردة سوداء يحاول عبثاً أن يلقى بها على رأسه فلا يمكنه ذلك لارتباك . ودعوره . !! وفي أعقابه امرأة عجوز ، فأخذنا يعدوان كأننا يطاردهما الشيطان !! ! وعلا في نفس الوقت داخل الدار صراخ استغاثة فاختلف الأمر على الجالسين في المقهى ، فجرى بعضهم في أثر الهاربين وقصد البعض الآخر الى الدار ، وأبدى الجميع اهتماماً كبيراً وانفعالا شديداً إلا أحقهم بالاهتمام والانفعال وهو أنا !! ! فقد قبعت في مكاني هادئاً أو قل ذاهلاً مستسلماً !! ! وتقدم مني صاحب المقهى وأشار الى الرجل الذي يعدو قائلاً : « أصدقني يا شيخ عمران !! هاهو ذا غريمك المجرم !! » وكأنما أنساه انفعاله نصحه السابق لي فدفعني بكلماته يديه وهو يصيح : « أما انتقمتم منه يا رجل وقتلته !! » فكان جوابي الهادىء إليه : « ما بي حاجة إليه ! فما كان لرجل أن ينال من امرأة وطراً إلا إذا كانت هي الراغبة الراضية !! ! »

وقفت إلى داري وإذا بابنتي بقرب بابها تنهمر الدموع على وجنتيها
فارتجت في أحضاني وهي تشهق وتعول وتخبرني في كلمات يقطعها البكاء
أن أمها تموت ، فقد عضتها الغريبة . . . واتجهت إلى أم طفلي فوجدتها
تلفظ أنفاسها الأخيرة والدم ينزف من فمها وأنفها فما أن لمحتني حتى ألقى
إلى بنظرة زائفة وتمتمت بصوت ضعيف : « كان الأولى بك أن تصوب
حياتك وتهيئتك إلى الفقر ، فهو الذي أهوى بي إلى هذه الهاوية ! »

الشهبان البشرى

كانت مولدى بأحدى قرى مديرية قنا من أبوين فقيرين ، فلما نما عودى أدخلت كتاب القرية لأحفظ القرآن الكريم . وكان الفقيه رجلا اتخذ من تعليم الصبية القرآن حرفة له ومرزقا ، وقد منى بقسوة فى القلب وغلظة فى الكبد ، فما كان الرفق أو الرحمة يعرفان سبيلا إلى قلبه الصلد . . . ولطالما حاولت أن أثنى أبى عما اختطه لى من سبيل فلم أفلح .

استسلمت لما قسم لى فكنت أقضى اليوم أكرر تلاوة ما يحفظنى إياه الشيخ ، فإذا أخطأت أو لحت كان جزائى عن كل غلظة أو لحة ضربة أو صفة تصحبها عادة سبة أو شتمة ، ولا أدرى من أين كان للشيخ هذه الثروة الطائلة من عبارات الشتم والسباب ! فإذا ما انقضى النهار أو كاد فى هذا النضال البغيض بينى وبين الفقيه ، وبينى وبين نفسى الثائرة الساخطة على حظى العاثر . أرسل لى الشيخ إلى منزله لأقضى له حاجاته التافهة كأنه قد اتخذنى خادما أو تملكنى عبدا له ولربة بيته الدميمة الرعاء المغرورة !

وكان يزاملنى فى سجن هذا الشيخ صبى اسمه « سعدون » يقاسمنى مرارة هذه الكأس من الشقاء ، فكنا نجد العزاء فى مطارحة الشكوى ؛ ولكن من سوء طالعى أن كان زميلى أقل منى صبورا واحتمالا ، أو إن شئت أكثر منى جرأة وعنادا ، ففر من هذا الجحيم تاركا كتاب الشيخ

ودار السيدة حرمة المصون ، واختفى لأيام قلائل عند أحد أقاربه ، ثم
عثر عليه أبوه وقد بلغ به الحنق عليه مبلغه . وفي ثورة من ثورات الجهل
والحنق عول الرجل عملاً بنصح بعض أصحابه ، على إدخاله إصلاحية
الأحداث ، فهناك ان يجد سبيلاً للهرب ، فضلاً عن أنه سيكفيه عبء
إيوائه وما كلفه وغير ذلك من تكاليف حياته التي كان ينوء بها كاهله ؛
ولكن كيف السبيل إلى إدخاله الإصلاحية دون جريمة يرتكبها الصبي !
ليست هذه بالعقبة الكؤود ، فقد وجد الرجل في أصدقائه خير عون
لتذليل هذه العقبة ؛ فما عليهم لو انفقوا جريمة للصبي وشهدوا هم عليه !!
إنهم بذلك فيما يعتقدون ، يؤدون خدمة لابن وأبيه ؛ فالصبي سيصلح
أمره ، والرجل سيخف عبؤه !

وهكذا أدخل الصبي إلى مدرسة الفقراء من صفار المجرمين !
وبعد أن قضى الصبي في الإصلاحية زمناً غير قصير خرج منها كما دخلها
فلم يتعلم فيها غير تنظيف الأرض والجدران والنوافذ والسكوت على
الذل والضميم والأهانة !

حنق الصبي على أبيه وزمته الذين جعلوا منه مجرماً دون أن يرتكب
جريمة ، ومداناً بغير ذنب ولا جريمة ، ونقم على الجماعة التي نشأ بينها فما
استطاع البقاء في قريته ، فهجرها إلى مدينه قنا حيث التقيت به بعد
أن هاجرت إليها ، عقب موت أبي هربا من سيدنا الشيخ .

وفي مدينة قنا لم يكن لنا مرتزق غير جمع العقارب وبيعها للحكومة
مقابل مليات معدودات نشترى بها مايسد الرمق إذا كان .. المحصول ..

وأفرا ، وإلا فلا مناص من الطواف بالمطاعم والمشارب نستجدي الآ كافرين
والشاربين فتاتا نتبلغ به شأن الحيوانات الطريفة !
وافتقدت زميلي (سعدون) يوماً على غير عادة فلم اهتمد إليه ، فلما
انقضت بضعة أيام علمت أن المسكين قد قبض عليه متهما بالسيرة .. ولم
يمض كثير حتى جاءني نبأ محاكته و إيداعه إصلاحيية الرجال سجيننا مع
كبار اللصوص والمجرمين !

وكان لي من صديقي التمس خير عبرة وأحسن موعظة : فابتهلت
إلى الله أن يهديني سواء السبيل ! وزادت نفسي ميلا إلى الخير وتعلقا
بالفضيلة وشغفا بالعبادة ، وشاءت لي الصدق التعرف إلى أحد مشايخ
الطريقة الرفاعية فاستهواني ورعه وتقواه فلازمته والتبعته حتى إذا ما عرض
على الدخول في زمرة تلاميذه ومر يديه ، أثلج هذا قلبي فأجبتة مسرورا
إلى طلبه وأخذت عليه عهدا — كما يقولون ...

وتعلمت أساليب الرفاعية وطريقتهم في مطاردة الثعابين والأمسالك
بها وبرعت في هذا الأمر حتى لقبت بـ (الحاوي) ، وحالفني النجاح ،
فكنت أدعى إلى المنازل والمزارع لأخلص ذويها من شر الثعابين
وخطرها ، كما تعلمت كيف أداوي بدهنها بعض الحيوان ؛ ووقفت في
ذلك الوقت إلى معرفة بعض الأجانب الذين أتوا من العلم بالزواحف
غير قليل فكنت أساعدهم في جمع أنواع من الثعابين كالبخاخ والناشر
والغريبة ، وأعاونهم في استخلاص السم من الأفاعى بغية القيام بتجارب
علمية . وبين عشية وضحاها بدل الله من أمرى بعد العسر يسرا ، وبعد

الجهل والدجل نورا وعماماً . . . فحمدت الله على ما أولاني من نعم جزاء
استقامتي وملازمتي للشيخ الرفاعي وتبركي به وعملي بنصحه وأرشاده . .
وانقضت سنوات خمس . . وبينما أنا سائر يوماً إذا بي تدربت على
كتفي ، فتلفت خلفي لأرى سيديا وقور المنظر بلبس من الثياب قشيبها
وغاليها ويزين أصابعه بخواتم من الذهب الخالص فتكسبه ثيابه وحليته
هيبية واحتراما ، وانتظرت أن يحدثني السيد عن الثعابين أو يطلب إلي
أخراج أحدها من داره كما كان يحدث لي كثيراً ، فأذا بي أسمع صوتاً
والوفالدي يقول لي :

« كيف حالك الآن يا عمران . . ؟ وكيف يا رجل تمر بي وتكاد
تلمسني فلا تعيرني اهتماماً ولا تفرئني سلاماً ؟ ! ! أترك لم تعرفني
يا عمران ؟ »

لم أصدق حواسي عندما تفرست في وجهي محدثي فتمينت فيه وجه
صديقي الغائب (سعدون) ، فعقدت الدهشة لساني فلم تنفرج شفثاي
إلا عن « ما شاء الله . . ما شاء الله . . » أكررها بغير انقباض .

وانتهينا ناحية هادئة حتى زالت عنى حيرتي ودهشتي فراح يقص
علي ما قاساه من الأم في سجنه ، وما عاناه من شقاء ، فامتلاً حقداً على
الناس وكرهية وسخطاً ، وكانت مشاعره تبدو في عينيهِ وقسمات وجهه
وهو يقول :

« يا للعجب يا أخي ! إنني لم أجد بين جدران السجن سجيناً
واحداً ينتمي إلى أسرة غنية ! فهل كان الفساد والإجرام والشقاء وقفاً

على أبناء الفقراء! ؟ لا .. ونعم .. إنك تذكر ولا ريب ابن عمدة بلدنا
وتذكر أنه كان في صغره أفسد خلق الله حتى ضج بالشكوى منه الجميع
ولسكن أباه الغنى بدل أن يلفق له جريمة يبعثه بها إلى الأصلاحية أرسله
إلى المدرسة وتعهده بالعناية والرقابة وأنفق في ذلك ما أنفق حتى صلح
حال الصبي، وأصبح يبشر بخير الثمرات ... هذا بينما ألقى بنا الفقر أطفالا
بين يدي شيخ قد يعلم الكثير إلا العلم، فبت في نفوسنا الكره له وغرس
في قلوبنا بذور الرذيلة ... إنه الفقر الذي ألقى بنا صبيانا بين يدي الموت
نداعبه ويداعبنا كل يوم مرات ونحن نجمع العقارب والموت يلعب على
أسنتها لكي نكسب من وراء ذلك ملايين نشترى بها ما يقيم أودنا!
إنه المال يا صديقي الذي يهيء سبيل الخير والرشاد، ولذا استقر عزمي منذ
خروجي من السجن على الحصول عليه مهما كانت الوسيلة وكيفما التوت
بي الطريق إليه! فلقد اعتاد الناس احترام الأغنياء والامتناء لهم غير
ذاكرين طريقة حصولهم على المال، جاهلين أو متجاهلين ما اقترفوا في
سبيله من خطايا أو ارتكبوا من آثام!»

ثم أخبرني (سعدون) أن حظه العاثر لازمه بعد خروجه من السجن
فكان يطرد من كل عمل يظفر به، لأنه لا يستطيع الحصول على شهادة
(حسن السير والسلوك) تركيه. وأخيرا انتهى إلى جماعة من الحواة،
وتعلم طرقهم ومرن على اصطياذ الزواحف؛ ولكن هذه المهنة لم تدر عليه
ربحاً وفيراً يدفع عنه غائلة الجوع، فعقد النية على الهجرة من هذه البلاد
التي لفظته، فهاجر إلى السودان بصحبة جماعة من تجار الجلود، وخاصة

جلود الثعابين ، فتعلم منهم أسرار تجارتهم ثم استقل بنفسه وراح يطوى
مجاهل أفريقيا وآسيا في رحلات شاقة مضية حيث وجد في الهند وغيرها
مخامم أكثر وفرة . وسرعان ما نمت تجارته وعادت عليه بالخير
الكثير الذي أرى أثارة عليه . ثم طفق يحدثني عن مشاهداته في
القارتين وأسهب في الحديث عن الثعابين المختلفة التي رآها في الغابات
والأحراج لأن حديثها يستهويني ، وذكر مما ذكر تلك الأفاعى الخضر
التي يسميها زنوج أفريقيا آكلة الضفادع ، وهي حيات تغشي المستنقعات
وشواطىء الأنهار لتفترس الضفادع وتتهذى بها ، وذكر لى كذلك حيات
الشجر التي تمضى النهار مخفية بين الأوراق حتى إذا ما غابت الشمس
نشطت في أثر السحالى تسممها وتبتلعها . وعرج (سعدون) بعد ذلك على
الأفعى السوداء المسماة (بالأبطر) فقال لى إنها أخطر الأفاعى في القارتين
على السواء ، ويفزع منها الزنوج رغم قصرها ؛ وهناك أنواع عدة من جنس
الناشر منها (ذو النظارة) الذى يروى عنه الهنود أن الآله (بوذا)
هبط إلى الأرض في شكل إنسان ونام في العراء فجاءه هذا الثعبان ونشر
عنقه وأظله من الشمس فجزاه على ذلك أن أمنه من شر المخلوقات
جميعاً ، وبعد حين ذهب إليه الثعبان يشكو أضرار الطيور الجارحة به فوهبه
تلك النظارة لتميزه عند الطيور . وأسهب (سعدون) في وصف (الأصلات)
الضخمة وختم حديثه (بالحنفش) تلك الأفعى الضخمة التي يستخرج
الأهالى سمها الغزير ثم يخلطونه ببعض الأعشاب ويدهنون بالمخلوط
أسنة الحراب فلا يفلت من تصيبه من هلاك محقق ؛ وأخبرنى أنه قد اشترى

منهم بعض هذا السم الذي يحتفظ به ...

واستقر المقام بصديقي (سعدون) وهو في شخصيته الجديدة فلم يعد في نظر القوم ذلك الطريد المنبوذ ، وإنما هو الآن رجل مبعجل موقر يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويؤدي فرائض الدين ، وأصبحت داره الفسيحة مزاراً لعالية الناس وخاصتهم يفخرون بدعوته لهم ويتشرفون بدعوتهم له ..

ومرت الأيام ... وتزوج (سعدون) من ابنة الشيخ عبد الرحيم التي تنافس الشبان في نيلها لما كانت عليه من جمال طبيعي لم تمتد إليه يد الصباغ ، أو لما كان عليه أبوها من غنى وجاه ، أو لما ورثته الفتاة عن أمها من ثروة طائلة أو لكل ذلك جمع

وروعنا في يوم منحوس نبأ موت الزوجة الشابة . . وشاع في المدينة أنها ماتت متأثرة بالذغة ثعبان !

وعصف الحزن والألم بقلب الزوج المنكوب فعكف على الخمر يعبها عباً لعله واجد فيها النسيان والسلوى !

وبعد أسابيع زارني الشيخ عبد الرحيم وأثر مصابه في ابنته يبين على وجهه ، وأخبرني أن العلة قد نالت من جسده وقد وصف له أحد الأعراب سم الأفاعي علاجاً لعلته وطلب إلى أن أبيعهُ بعضاً منه لعل فيه شفاء له ، فبعته ما طلب .

وعاد الرجل إلى زيارتي بعد أيام وقد تحسنت صحته بفضل دوائي العجيب كما ذكر لي ، ودعاني إلى قضاء يوم معه ومع صهره السابق سعدون في إحدى ضيعاته القريبة من قنا ، ولينا أنا وصديقي الدعوة

فكانت رحلة شائقة في صباح يوم من أيام الربيع الجميلة الزاهرة ، حتى إذا ما انتصف النهار قدم إلينا من الطعام أشباه ومن الفاكهة أطيبها ، وراح يكرم صديقتي سعدون بكؤوس من الخمر مترعة . . .

وبعد أن امتلأت انتحيت جانبا لأريح جسدي وإذا بصرخة تدوى . . . وإذا بسعدون يتلوى كمن مسه مس من الجن . . . وإذا بالداعى يقهقه عاليا في جنون وهو يقول : « ماذا دهالك يا صاح ؟ ما أحسبها إلا لدغة الثعبان الذي لدغ ابنتي وسابقتها من قبل ! . الآن أشرب الكأس التي سقيتها لها . . . أشربها حتى الثمالة أيها المجرم الأثيم ، ودعني أكشف لك في آخر لحظاتك عن سرّ وإثمك ! . . أتذكر يوم واريننا ابنتي ميثواها ؟ لقد سمعت يومها أحد المشيعين يقول لصديق لي في خفوت وعجب : « أهي عضّة الثعبان دائما ! » ولم ألق بالالما سمعت ولكن عند ما آويت إلى فراشي في تلك الليلة ترددت العبارة في سمعي فأقضت مضجعي وأقلقت منامي ، فما أصبح الصباح حتى سميت إلى مقابلة قائل تلك العبارة الرهيبة ، وعامت منه إنه قد قضى بالسودان حقبة طويلة وقص على خبر زيجتك الأولى هناك من امرأة غنية ، وكيف قضت هذه المرأة نحبها بعضة ثعبان فأل إليك بموتها الثراء العريض الذي ترفل الآن في نعمه . . . »

وتوقف الرجل برهة ليلتنقط أنفاسه ثم استأنف قائلا : « . . . لم أكتف بما سمعت ، بل دسست عليك في مجلس لهوك سميرا لك ، يحفظ لي جميلا أسديته إليه ، فما زال بك حتى لعبت الخمر بعقلك ذات ليلة فراح يستدرجك

في حديث السموم حتى زل لسانك وباحث الخمر بسرك ، فذكرت
كيف قضيت على زوجتيك البريئتين بمقتهما بسم (الخنفس) فظن الناس
أنه الثعبان ولست أنت المجرم ! ورحت تبرر إثمك بشهوتك إلى
الثراء الطائل شأن غيرك ممن سلكوا إلى سبيله المسالك الشائنة الملاحظة
بالجرمة والعار ! فلما تبدل شكى يقيناً بجر يمتك ، آليت على نفسي وعاهدتها
على أن لا أدعك حتى أذيقك الكأس التي أذقتها ابنتي وأحرمك من
مالها الذي أردت أن تنعم به من بعدها ! »

كان (سعدون) يستمع إلى قول الشيخ عبد الرحيم وهو يعوى
كالذئب من قسوة الألم الذي يهراً أحشاه . دون أن تأخذ الشيخ الثاقل
به رحمة ولا شفقة ، بل راح يصب على رأسه لعنته ولعنة الله .

وتماسك المسكين الشقي وتمتم وهو يلهث : « لقد طاردني الفقر حتى
كاد يقتلني ، فلما بلغت الغنى كان فيما بلغتته موتي ! » ثم سكتت حركاته
وظل الألم مرسوماً على وجهه وراح في غمرة غيبوبة لم يفق منها .

الانتقام البارد

حدث لى فى عام ١٩٢٠ وأنا فى طريقى إلى فينا أن قال لى الجمال وأنا أهم بالصعود إلى عربة اكسبريس روما - فينا :

« أنك يا سيدى لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الحقيبة الكبيرة فى الديوان ، فوزنها أكثر من ثلاثين كيلو ويتحتم عليك شحنها ، وإذا أنت ضاعفت لى الأجر ، أمكننى أن أحمل موظف الشحن على أن يتفاضى عن ثلث الوزن ، كما لو كانت الحقيبة تزن عشرين كيلو فقط ، فترجى بذلك بضع ليرات

أومات إليه لأيجاب ، وأنا لأدري السبب الذى دفعنى إلى استباحة هذا النفس ، واهل عذرى يومذاك أنى كنت شابا طائشا قليل التجارب أسر الجمال فى أذن الموظف بعض كلمات وألقى بالحقيبة على الميزان ، وأعطانى قسيمة التخليص على الحقيبة ونقدته المبلغ وحمدت الله على خلاصى من هذا العبء الثقيل ، وأخذت سكبائى فى الديوان الذى كان يضم بعض شابات وشبان ، أدركت من حديثهم ولباسهم أنهم جميعاً أصدقاء يسهرون فى غير كلفة ، وأنهم فى طريقهم إلى رحلة شاقة يتسلقون فيها الجبال الشائخة . كان بين هذه الجماعة شاب يتكلم فى حماسة عن الغدر فى الحب ، ويقول فى جرأة أن الخير كل الخير فى التنكيل بمن يعبت بعهود الحب ! وهنا ارتفع صوت إحدى الشابات تندد بهذا الرأى وتقول فى صرامة وحدة : « أنه من الحق أن يعمد المرء إلى الانتقام ممن خان عهده وما خلق الإنسان الا ليزل ويخطىء ، ويحمل بنا أن

نتسامح ونغفر الزلة ، والزمن كفيل بعد ذلك بدفن الماضي بين طيات
النسيان ؛ وعلمنا أن تذكر هذا القول المأثور : حبوا أعداءكم والذين
يسئون إليكم !

وعلى أثر ذلك انبرى لها أحد الشبان وقال في صوت هادي ، رزين
« وعلى ذكر هذا القول المأثور سأقص عليكم قصة واقعية ! » ثم اعتدل
في مكانه وراح يقول : « كان مارتيني وماركو يعملان في أحد
مصانع الورق القريبة من روما وكانا صديقين حميمين منذ الطفولة ، ورغم
ما فيهما من تباين الخلق فقد خبر كل منهما الآخر ورضى به كما هو ولم
يحاول أحد منهما أن يشير إلى ما في صاحبه من نقص أو شذوذ ، وعاشا
كما لو كان ياكل أحدهما الآخر ، فلم يفرقا إلا عند النوم ، يذهب كل
منهما إلى منزله بعد أن يودع رفيقه بكلمات عذبة تشكر كل مساء . »
« وكان مارتيني طويل القامة مفتول الساعدين ، في عينيه الواسعتين
سخر جذاب وفي صوته رنين حلو ؛ أما ماركو فكان قصير القامة
نم أسايره عن دعة وطيبة كما كان على عكس صديقه ورعا تقيا ، قلما
تفوته الصلاة كل أحد في كنيسة القديس بطرس ، ولا يأبه باللبس
الأنيق ، وكثيرا ما كان يعظ ماركو إخوانه في المصنع ويحضهم على
الصلاة ويدعوهم إلى عمل الخير والتجاوز عن الأساءة ، ويردد القول
المأثور « حبوا أعداءكم » وقد أطلق عليه في المصنع اسم « ماركو الورع » .
تزوج ماركو فتاة بقيمة الأبوين ، فقيرة ، تدعى « إيدا » تعلمت
في أحد الأديرة تعليما دينيا حبيبها إليه ، فشغف بها . وكانت « إيدا »

تقناة غضة في العشرين من عمرها ذات قوام معتدل ، وشعر فاحم ،
وعينين فيهما صفاء ورقة .

لم يغير هذا الزواج من سلوك ماركو نحو صديقه ، فكان
مارتيني يقضى معظم وقته مع الزوجين ، يأكل ويخرج الثلاثة
للزهة معا ، حتى أصبحوا مضرب الأمثال وحديث الناس في الوفاء
والأخلاص . وكثيرا ما خرج مارتيني مع الزوجة وحدهما إلى
الضواحي أيام الأعياد وتاركين ماركو الورع في كنيسة القديس بطرس
يصلي من أجلهما ، ولم تجد الغيرة سبيلها إلى قلب هذا الرجل الطيب ،
ولم يشك لحظة في أخلاص صديقه وبلغ من طيبته أنه كان يجزل له الشكر
على هذا الجهد الذي يبذله في إسعاد زوجه أثناء غيابه .

وحدث ذات مساء ، والثلاثة ينعمون بشهي الطعام ولذيذ الشراب
أن طرق عليهم الباب طارق ودفع إلى « ماركو » ببرقية تستحثه على
الأسراع في السفر ليودع أحد أقاربه الوداع الأخير فاستأذن زوجته وقام
من فوره بؤدى هذا الواجب . وتاركا إيذا العناية صديقه ، وقال لهما
أن سفره قد يستغرق أربعة أيام . ولأمر ما عاد الزوج بعد يومين ودخل
منزله وفتح باب غرفة النوم وطل برأسه فصعق إذ رأى فراشه يضم
« إيذا » وصديقه . ولكنة بدلا من أن يقتحم باب الغرفة ، ضحك
ضحكا عاليا ثم أغلقه وفارق المنزل إلى أحد المقاهي وكان يردد في شبه
جنون : « حبو أعداءكم والدين يسيئون إليكم ! » . ثم هدأت تائرتة
وعاد أدراجه إلى المنزل فوجد إيذا وحيدة قد علا وجهها شحوب

فقبلها في شوق مصطنع وسألها عن مارتيني وأظهر أسفه لأنه لم يره إلى جانبها ، ولم يشر في حديثه إلى مفاجئته لهما في غرفة النوم وطلب إليها أن تصحبه إلى مارتيني وقال لها في صوت رقيق : « قد يكون — المسكين — مريضا وألا فما الذي منعه عن المجيء إليك ؟ »

لم تسمع المسكينة حرفا واحدا من كلام زوجها ، فخرجت معه تتعثر في أثيابها ثم وقفت فجأة وخانتها قواها وحلقت في وجهه وصرخت وكادت تهوى إلى الأرض لولا أن أسندها بذراعه وأجلسها على أحد المقاعد القريبة وأحضر عربة وعاد بها إلى منزله ، ولم تلبث أن أفاقته من ذهولها وأطالت إليه النظر فسألها عما بها ، وكيف تجد نفسها الآن ، وناشدها أن تعود إلى مرحها ، وكرر أسفه لغياب مارتيني فيما كان أحوجها إليه الآن ، ليروح عنها بدعابته الطريفة ، وتوسل إليها في رقة وحنان أن يتركها لحظة لاستحضار صديقه وخرج إلى حيث يقيم فوجده منبورا في سريره شارد اللب ، فارتدى عليه يعانقه ، واستفسره عن سر غيابه وعنقه على أهال زوجته أبان سفره ، ورجاه أن يسرع معه إلى منزله لأن أيديا في حاجة إلى رعايته .

بهت مارتيني لموقف ماركو ولزم الصمت . فتضرع إليه الزوج أن يذهب معه وألج في الرجاء ، فلم ير مارتيني بدا من الأذعان لمشيئة صديقه مشدوها لا تكاد تحمله ساقاه. ودخل الزوج وصديقه فوجدا إيذا وقد انظرحت على سريرها تجهش بالبكاء ، فقال لها ماركو : أخيرا حضر مارتيني — فمدى إليه يدك وصافيه وأعدى لنا كما كنت تفعلين .

طعام العشاء ولا تنسى أن تقدمي كأسا من النبيذ الفاخر لنشرب نخب
الصداقة القديمة التي لم تكدر صفاءها شائبة ! » .

قامت إيذا لتعد الطعام . وجلس الزوج مع صديقه ليحدثه عن
سفره ، وظل يتسكلم طويلا ويتسّم لصديقه ، ويربت على كتفه ؛
أما مارتيني فكان في دنيا أخرى من أحزانه وآلامه ووخز ضميره
وحاول أن يرفه عن نفسه بالبكاء فاستنصى عليه ، ثم انتصب في حركة
عصبية وهم بالفرار وعمر يصبح : « إنك تمثل يا رجل ! » فأمسك به الزوج
وأجلسه في مكانه وقال له في وداعة فائقة : « إنك مريض يا صديقي
وخير لك أن تستريح في فراش إيذا ريثما تعبد لنا زوجتي طعام العشاء ! »

ضاق مارتيني ذرعا بهذا التمثيل وود لو يركع أمام هذا الزوج
يبذل قدميه بدموعه ويطلب إليه في خشوع واسترحام أن يغفر زلته .
ولكن الزوج لم يهدأ ليفعل ذلك وخف إلى زوجته فألقاها تهذي بكلام
غير مفهوم .

كرر ماركو هذه المأساة مرات عديدة ، فكان يجمع بينهما ويمثل
أو يحاول التمثيل ما شاءت له براعته في هذا الفن البارع .
سكت الشاب قليلا ثم قال : « وهكذا — أحب ماركو أعداءه
والذين يسيئون إليه ، وانتقم عن طريق حبه اللدود ... من حبيبين
بعث بهما إلى مستشفى المجاذيب . والغريب في أمر هذا الرجل أنه ظل
يصلي من أجلهما في الكنيسة ويزورها أيام الأحاد !!! »

وقف القطار في إحدى المحطات ، ونزل منه الجماعة ثم واصل السير
ينهب الأرض ويطوى المضاب والأودية ، حتى وصل إلى (فينا) ،
فذهبت من فوري إلى الجمر ك لأتسلم الحقيبة ، وفتحتها ودهشت أيما
إندهاش عندما لاحظت أن يداً غريبة قد عبثت بمحتوياتها ، وأن
بعض أمتعتي مفقودة ، وطلبت إلى الموظف أن يزنها فقال لي : عشرين
كيلو : — فابتسمت في مرارة وقلت لنفسى لقد رجحت في روما بضع
أيرات لأفقد من أمتعتي ما يساوي جنبيات !

حب في الخريف

في صيف سنة ١٩٣٥ هبطت مدينة كاراسباد المشهورة بمياهها المعدنية وجمالاتها ، ونزلت في أحد فنادقها الكبيرة في غرفة تطل على حدائقها الغناء وميادينها الواسعة ، وكانت تسكن إلى جانبي في غرفة أخرى ممثلة حسناء في الثلاثين من عمرها رائعه الجمال : قوام معتدل يستوقف النظر كأنها قطعة من الفن الاغريقي ؛ وكانت إذا سارت تسير في خطوات رشيقه سريعة لا تلتفت يمنة ولا يسرة فهي تفرط جمالها لا تأبه لما حولها كأنها في دنيا أخرى من أحلامها .

وقد حاولت التقرب منها والتعرف على أحوالها ، فكانت ترمقني شذرا وتتجنبني وتترك الشرفة عندما تشعر بدخولي إليها وتفر من أمامي إلى غرفتها في حركات عصبية تتمم كلاماً غريباً لا أفهمه وأحسبها تصب اللعنات على ذلك المخلوق الذي عكر عليها جلسة الصباح الممتعة .

عجبت لأمر هذه الفتاة في وحدتها هذه ، وهي لو خرجت من صومعتها لو جدت معجبين كثيرين يتفننون بجمالها السحري ويسمعونها كلمات الحب في شعر ونثر ، وكنت أنا الآخر وحيدا مثلها في هذا البلد ، لا يؤنسني في وحشتي صديق ، وعجبت لهذه الوحدة التي لا تجمع بين قلوبنا ، ودهشت لما تبديه من جفوة كلما نظرت إليها .

لم أعد أضايقها بعد ذلك ، وانتقلت إلى غرفة أخرى في الطابق العلوي وتبدلت أساليب حياتي ، وخرجت من وحدتي إلى الناس أتعرف إليهم

وأهلهم معهم واتصلت بيني وبين صاحب الفندق أسباب المودة ، فسألته يوماً عن أمر تلك الحسنة وعن سر كرهها لي ... فأجابني : « إنها من أسرة عريقة وأنها أحببت هذه المدينة لتصطاف فيها كل عام . وهي طيبة القلب رقيقة المشاعر ، رغم ما في خلقها من حدة ، وهي مولعة بدرس الأدب الشرقي وما يتصل به من عادات وتقاليد ، وقد قرأت في ذلك رباعيات الخيام وألف ليلة وليلة وغيرها ، وسافرت غير مرة إلى الشرق ووضرت خيامها في صحرائه ونعمت بما في هذا الجمال من خيال بديع ؛
أما سر كرهها لك فلا نك تشبهه ... »
« أشبه من ... ؟ »

« تشبه ذلك الذي أحبته يوماً الحب كله ، وعاشت معه في حلم لم يتحقق ... »

فقاطعته قائلاً :

« أظن أنها كانت تسر للقائى لتجدد تلك الذكرى الحبيبة إلى قوادها ؟ »

فأجاب : « إنها عانت تجربة قاسية ! » وطفق يسرد على قصتها :
« نزل هذا الفندق في صيف العام المنصرم رجل شرقي في زي أهل المغرب لم يتخط العقد الرابع من عمره ، طويل القامة يضرب لون وجهه إلى السمرة ، في عينيه بريق وسحر . وكان الرجل قليل الكلام يجيد لغات عدة ، ويخرج في الصباح يتنزه في الحدائق المجاورة فتصوب إليه المارة نظرات غريبة متسائلة ، ويتقدم إليه بعض الناس يسأله عن جنسيته

وبلده ، فلم يكن ليحب على هذا إلا بالتسامة رقيقة ثم يوسع الخطى عائداً إلى غرفته حيث ينكب على مطالعة الصحف .

« كثير كلام المصطافين حول هذا الرجل وألح على كثيرون أن أقدمه إليهم ومن بينهم صاحبك هذه ؛ وقد حسبت أن الشرق بمحاسنه وبهيجته وسحره قد انتقل إليها فهي منه على موعد في هذه المدينة ، وشغفت أيما شغف بهذا الزائر الكريم الذي كان يحمل بين جنبه قلباً فيه حرارة تلك الشمس الفتية التي عرفتها في أسفارها . وكانت كلما جمعت بينهما ازداد حبها له رغم حديثه القصير الجاف وصلفه وكبريائه . على أني أخاله يخفي بين ضلوعه هما دفينا تستشعره في نبرات صوته وتتلمسه في جبينه المقطب وتحسنه في نظراته الشاردة . كانت تعتلج في صدر هذا الرجل عناصر الشر من قسوة وحقد وحسد يضررها للناس جميعاً فهو بينهم كالموتور يود لو يثار لنفسه منهم ؛ فهو إذا تكلم عن الناس رماهم بالظلم وندد بمساوئهم وعدد مثالبهم ، ولعله قاسى في حياته محناً حطمت القلب وطوحت بآماله في الحياة ...! »

« وحدث أن سأته الفتاة عن وجوده وحزنه فأجابها بأنه سر يختفظ به لنفسه ؛ ثم سأته مرة أخرى عن زواجه وحبه لتستوضح منه ما خفي عليها من عواطفه ، فكان رده عليها أنه لم يتزوج ولكنه يعرف الحب فتهللت أسارير وجهها وهمت بتقبيله ، وحسبت أنها ظافرة منه بعد هذا الصبر الطويل بكلمتي الحب والزواج ؛ ولكنه لم يمهلهما تسألها سؤالها الأخير وقال في مرارة : « لقد أحببت الحياة أيام طفولتي ! » فدهشت لأجابته

ولم تفهم من ذلك حرفاً . وكثيراً ما كانت تراسله وهي معة في الفندق إذ كانت لا تجرؤ بعد ذلك على سؤاله وهي في مجلسه ، فكانت تتحدث إليه في رسائلها عن الحب والزواج ، وعن البيت عش المرأة وما ينتظرها فيه من هناء ونعيم كانت تتحدث عن ذلك كله وتكشف له عن حبها له وحنينها إليه في لهجة عذبة ؛ ولكن المسكينة لم تكن لتتلقى رداً على هذه الرسائل ، ولم يكن يشعرها بشيء من هذا عند مقابلتها «

« كتبت حبها له ما شاء لها السكتان ، وعمدت إلى إثارة حبيبها بالغيرة ليفتح لها قلبه ويبادلها حبا بحب ، ذهبت كل هذه المحاولات هباء فلم تسكن لتقوى على فتح مفاتيح هذا القلب الجبار .

ضاق الرجل ذرعاً بحبها ، ورغب عنها ولزم غرفته ، وراحت الفتاة تذرف الدمع سخينا وحيدة ، وتأثرت أعصابها لكثرة ما عانتها من ألم . وصارت تهتاج لغير ما سبب وتصرخ غير حافلة بتقولات نزلاء الفندق نعى إليها خبر اعتزامه السفر بعد يومين ، فنقد صبرها وأصررت على مقابلته للمرة الأخيرة ؛ فاقتحمت عليه باب غرفته ، وتوسلت إليه أن يأخذها معه إلى بلده لتعيش إلى جانبه ، يبنيان وكر الحب وينهجان بالزواج ثم ركعت أمامه ، وأذلت كبرياء المرأة وهو واقف كالتمثال ؛ ثم استشاط غضباً وأشار إليها في قححة أن تبرح هذا المكان فأخذ منها الغضب كل ما أخذ ، وثارت ثائرتها وهددته بأنها ستتملاً عليه الجوصياحاً وتطلب النجدة ، وأنذرتة بأنها ستدعى عليه أنه حاول اغتصابها ، وفي ذلك ما فيه من عقاب ظل الرجل جامداً في مكانه ولم يحجر جواباً .

ودفعها بيديه فتعلقت به وانتهالت عليه ضربا ، وصرخت ، فهرع إليها
الناس وأدعت عليه ما ادعت... وحضرت فيمن حضر من القوم ، الذين
كالوا له الشتائم ، وصبوا عليه جام غضبهم ، وأخيرا تكلم الرجل ورجا
أن يخلو بي دقيقة واحدة ، وأخرج إلى (الباسبور) وأرانيه ، فهرولت
من غرفته مسرعا وأنا أضحك عاليا كالجانين وشيبت القوم ومن بينهم الفتاة
بنظرات السخرية !!! »

ثم سكت الرجل قليلا وقال : « لقد قرأت ، في (الباسبور) أمام
الوظيفة : « باش أغا سلطان سرا كش !!!... »

ثم نظر إلى طويلا في خبت وقال : « أظن يا سيدي أن أعصابها
لا تتحمل هذه التجربة مرة أخرى ! فقد أحببت هذه المسكينة في الخريف
وهي لما تنزل في ربيع حياتها ! » وتركني وانصرف وأنا كالمشده —
وسمعت ضحكاته المألوفة فأسرعت في أثره وأمسكت به وصحمت في وجهه
« أنا باشمهندس !! »

المنتظرة

كان قد مضى على آخر مقابلة لي مع هدى أكثر من عشر سنوات . كنت في خلالها أتم دراستي في إحدى جامعات أوروبا ، ثم تزوجت هناك و عدت مع زوجتي النمساوية إلى مصر والتحققت مدرسا بالجامعة وشاء سوء طالعى أن أفقد زوجتي العزيزة إثر مرض قضى عليها وخلف لى الهم والحزن . وكان أن قابلت هدى بعد هذه المدة الطويلة وأنا أقطع أحد شوارع القاهرة ، فاستوقفتني ومدت لى يدها مسلما وكدت لا أعرفها فقد تغيرت كثيرا لولا أن نبرات صوتها الخلو ظلت كما كانت أيام عرفتها . كان فرحى عظيما بلقاء هدى ومررت أمام نظرى صور الماضى سراعا متلاحقة وتراءى لى منزلنا القديم الذى كان يقوم بجوار منزلها فى حى الحامية القديم . كنا حينذاك طفلين صغيرين لا نكاد نفترق طوال يومنا إلا فى فترات الطعام . وكان أن أشتد عودى وأدخلت المدرسة واشتد عودها كذلك والتحققت شى الأخرى بمدرسة فى حى بعيد . وكان على أن انتظر سيارة المدرسة وهى تعود بهدى فأهرع إليها وهى فى ثوبها الأزرق القصير وقد شدت مخرنطة كتبها على كتفها ووقفت فى قامتها الرشيقة تبسم لى فى طهر وتصعد إلى منزلها وتجلس إلى جانب النافذة تستعيد دروسها وكنت أجلس أنا الآخر قبالتها إلى نافذتى أخالسها النظر — ذكرت كل هذا وذكرت كذلك كيف كنا نختلف إلى الحدائق فى أيام الجمع والأعياد نلهو ونتمتع بما حولنا فى

براءة وسذاجة . ثم فرق بيننا الدهر وما يكشف أحدنا الآخر بعواطفه
أو يعاهده على قسم . وارتحلت إلى بلاد الغرب وها هي ذا هدى
أمامي الآن في أحد شوارع القاهرة تعيد على سمعي ذكريات الماضي الحبيبة
إلى نفسي . ودهشت عندما حدثتني عن موت زوجتي وعن أشياء أخرى
ثم قالت لي :

« وها أنت ذا ترى أنني أصبحت امرأة ثرثارة . . . »

ولكني قاطعتها وقلت لها :

« وكيف حال أختيك ؟ »

غير أنها واصلت حديثها عن الماضي فلم تجب على سؤالى ولم أشأ أنا
من جانبي أن أعيد عليها هذا السؤال ومضت تتحدث عن منزلها الريفي
الجميل في ضواحي القاهرة .

وقالت وفي صوتها رنة ألم :

« ما أظنك يا صديق الطفولة تظن على ثلاث أخوات وحيدات

ومعهن أم عجوز بزيارة! » وفي الحلق أنني رحبت بهذه الدعوة وسررت لها .

زرت هدى في منزلها الريفي وطفقت معها في أرجائه . ، وشاهدت فيما

شاهدت ثلاث غرف بيض كأنها أعدت لثلاث عذارى . وقد أدهشني

ما رأيت على جدرانها من صور كثيرة لرجال لم أعرفهم ولا أذكر أنني

رأيت بين هذه الصور صورة واحدة لأمرأة حتى ولا صورة صاحبة الغرفة

نفسها . ودهشت كذلك لرائحة التبغ التي تملأ جو هذا المكان ورأيت

الدخان يتصاعد من لفافة تحترق في محارة جميلة . على أنني لم أر أحداً في

هذا المنزل غير هدى التي قالت لي ولعلها لحظت حيرتى :
« لا تعجب يا عزيزى فأتى أنما أشعل هذه اللقافة وأدعها هكذا
لاستشعر وجود مخلوق معى فى هذا المنزل ولأدفع بها هذه الوحدة
المضنية . . . »

ولم أدعها تتم حديثها بل قلت لها على الفور .
« أحسبى سأسمع بقاء أمك وأختيك ؟ »

فقلت :

« لقد فاتنى أن أخبرك أنهم ذهبين فى زيارة قصيرة » وأشارت بيدها
إلى الدخان المتصاعد من اللقافة التي كادت نارها تنبوء . على أن هدى
عجبت وأشعلت لقافة أخرى ووضعتها فى الحارة تبعت هدى إلى
الشرفة وجلست إلى مائدة الشاي وطفقت تقدم لى بعض الكعك وأنا
غارق فى تفكير عميق . أنظر تارة إلى الورود البيضاء التي تزين هذه
المائدة وإلى هذا السور العالى الذى يشبه أسوار الحصون القديمة ولا يستطيع
ناظرى أن يكشف ما وراءه . وفى الحق أنى لم أسعد فى هذه الزيارة
فقد ألم بى حزن لا أعرف مصدره . . . انتهينا من تناول الشاي فقدمت
لهدى لقافة تبغ وقلت لها :

« ما أحسبك ترفضين هذه اللقافة بعد كل ما رأيت ! »

وأشعلت لها اللقافة ورحت وأياها نرقب هذا الدخان المتصاعد ثم
ما عثمت أن سألتها عن هذا السور العالى وقلت لها :

« أنى أعجب أن يظل مثل هذا البناء حتى وقتنا هذا ، ينطق بالظلم

الذى لقينته المرأة فى العصور السالفة ! وها أنت ذا ترين يا عزيزتى أننى
أجلس وأياك لا يفصل بيننا سور ولا تقام بيننا حجب . وها أنا ذا أراك
سافرة تقابلين من تشائين من عباد الله فى غير ما خوف ولا خجل ! «
ثم أمسكت عن الكلام وساد السكون برهة . ولكن هدى لم
تلبت أن قالت :

« قد يكون فى قصة هذا السور ما يزيد فى ألمك ! ولكنك أن
قبلت قصصتها عليك ! » وراحت من فورها تسرد على قصة السور بعد
أن لمست أبى جد مشوق إلى هذا الحديث قالت :

« عاش على بك التركى فى قصر لا زالت آثاره ترى قائمة هنا
وهناك فوق أرض واسعة يحجبها عن هذا السور . وكان الرجل عريض
الجاه نافذ الكلمة واسع السلطان . وكان قصره قطعة من الجنة ، جمع كل
أسباب النعيم : تحوطه الحدائق الغناء بأشجارها الباسقة وأزهارها الياقة
وتناسب بينها الجداول بمائها النير الرقراق ، ويمدو هنا وهناك ظبي شارد
وتنتقل الأطيوار من فنن إلى فنن ، وترسل من فوق الأغصان تغريدها
الحلو يملأ أطباق السماء بألحان الغزل والحب والحنين ؛ وتطير الفراشات
بالوانها الزاهية مع النحل بين الأزهار تلقنها حديث الحب فتبعث البهجة
والسرور فى هذا الفضاء الذى يعج بشئى أنواع الحياة ... »

« كان القصر عامراً بكل صنوف المسرات والترفى ، فقد جهز
بالأثاث الوثير وتدلّت من سقفه الثريات الفخمة وزينت جدرانها
بالسيوف القديمة ، وعلقت ألواح لصور الأجداد »

« عاش الرجل مع زوجته وبناته الثلاث في هذا النعيم وفيها ساهرا على هذا العش يحوطه بمنائته . أما زوجته فكانت من هذا الطراز النهم اللعوب الذي لا يكتفي برجل واحد . . . داهية تظهر غير ما تبطن فقد استطاعت أن تخفي نزواتها وعشها عن زوجها طوال هذه المدة بما كانت تحبوه به من حب زائف ووفاء كاذب . ولكن لم يلبث أن افترض أمرها في القصر وتهامس الخدم فيما بينهم وتناقلوا مغامراتها مع البستاني ولم يجسر أحد منهم على الإفشاء بشيء من هذا إلى سيدهم ؛ وحتى الأغوات ، وهم الحراس والجواسيس على النساء ، لم يجسروا هم الآخرون على إفشاء مسلك هذه امرأة الشائن ولعلمهم وقد حرموا متع الحياة وحلت بهم العقمة من نفر من الناس جعلوا منهم أشباه رجال ، ناقون لا يهمهم أن يقوموا حراساً على أشياء لا يعرفونها ولا يحسونها ! »

« طمعت المرأة تلهوا و الزوج يفرها بحبه، و شاء ربك أن لا يدوم هذا طويلا فقد سافر الزوج لبعض شأنه و حسبت الزوجة أن الجوع خلا لها مع عشيقها البستاني و أحضرت مالد و طاب من طعام و شراب في مخدعها ، تفرغ مع حبيبها في حمأة الرذيلة . . . و لأمر ما عاد الزوج من رحلته على عجل و أحسا به و لكن الزوج فاجأها قبل أن يفكرا في الخلاص من هذا المأزق . على أن العشيق قد تمكن من الفرار بأن قفز من النافذة التي لم تكن تبعد كثيراً عن الأرض ، و تبعه الزوج و لكنه تعثر ببعض جزوع الأشجار و سقط على الأرض في ظلام الليل .

الحالك . ونجا العاشق بحياته إذ لم يستطع الزوج اللحاق به «
«استند الزوج إلى أحد الأشجار وأفاق إلى نفسه وراح هواء الليل
البارد ينعشه وشرع يستعيد ما فقدته من وعى وتنكير ومضى يفسر
في هذه الزوجة التي خانته وراح يقول لنفسه « مالي وهذا الرجل !
فلعل هذه المرأة قد غررت به وبدلت له المال وهو فقير ورب أسرة
كبيرة ! » — وتحامل الرجل على نفسه وعاد أدراجه إلى حيث هذه
الزوجة ، فإذا مخدعها يموج بالخدم والأغوات وإذا بها طريجة الفراش
تتلوى وتئن . فصرف الجميع بأشارة من يده فخرجوا وأغلق وراءهم
الباب وأسرع إليها فوجد إلى جانبها زجاجة فارغة ، فأمسك بالزجاجة
ووضحت له الحقيقة فقد شربت السم وهاهي تجود بأنفاسها الأخيرة
رفعت رأسها متشائلة وقالت له : « هل ظفرت به وقتلته ؟ . . إنه
مسكين أنا التي غررت به ! » ثم عاودها الأئين . ورمقها الزوج
منظرات كلها حقد وقال لها : « أجل لقد لحقت به وقتلته وها أنت
تهتمين بأمر هذا الرجل حتى في ساعتك الأخيرة . وما أظنك تطلبين
إلا أن أغفر له زلته ! أجل لقد قتلتته وكنت أريد أن ألحقك به
ياشقية لولا أنك سبقتني إلى قتل نفسك ، فاذهبي إلى الشيطان ! »
وأطرقت المرأة مليا ثم قالت في صوت رهيب كأنها تنتقم لعشيقتها
« إنك قتلت والد إحدى بناتك الثلاث » وجن جنون الرجل وصرخ
قائلا : « أيهن يا أم الشيطان ؟ تكلمي يا خائنة ! » ولكنه لم يسمع
جوابا وساد جو المسكان صمت عجيب . وكانت هذه الجملة آخر

ما نطقت . وانفطت أنفاسها تشيعها لعنة هذا الزوج المسكين «
« كانت لهذه الصدمة أثرها العميق في قلب هذا الرجل ، فانزعجت
منه الحب الأبوى وبدلته سخائم وضغائن وجملته يحقد على الناس جميعا
ويضمهم لهم الشر وظل يرن في أذنه صدى جملة زوجة . وفكر فيها
طويلا . وكان لا يطيق النظر إلى وجوه أطفاله الصغار ولكنه رغم ذلك
كان يتوق إلى أن يكشف عن ثمرة جريمة زوجته فينظر إليهن خلصة
ليفحصهن الواحدة تلو الأخرى لعله يشر على ابنة العشيقي ؛ ولكنه لم
يظفر بها »

« عانى الرجل ما عانى من عذاب وضاق بالحياة ذرعا ولم يدر ما يفعل
فقد أثقل الهم كاهله — وأخيرا أعمال فكره واهتدى إلى طريقة ينتقم
بها من أطفاله في شخص زوجته فأوقف جميع أملاكه على بناته الثلاث
واشترط ألا تبرحن القصر وألا يتزوجن طول حياتهن . وصرف
الرجل خدم القصر بعد أن كافأهم واستبدلهم بمزببة عجوز ، وأقام حول
القصر هذا السور الذي تراه اليوم ، ثم رحل عن هذا البلد إلى (الآستانة)
الأقامة بها — أما البنات الثلاث فقد عشن في هذا القصر كما تعيش
الراهبات سجينات لم يقع بصرهن على رجل منذ رحيل الأب . وقد
عنيت المربية العجوز بتثقيفهن وكن رغم ذلك ساذجات يسألنها أسئلة
غريبة عن الرجل والحب وكل ما يتصل بالحياة فتحار المسكينة ولا
تدرى بم تجيب ! وكثيرا ما راقبن الطير وهو يبني عشه ويضع بيضه
ويحتضن صغاره وهن لا يدركن من كل هذا شيئا ! »

ماتت المريبة العجوز وقامت كبرى البنات برعاية أختيها ، وماتت
على الأخرى بعد أن ناهزت الخمسين ثم تبعها الصغيرة في مائة الصبا
وظلت الأخيرة تمانى مرارة الوحدة إلى أن وافتها المنية وقد أربت على
السبعين . . .

سكنت هدى وملاً جو الغرفة نغم حزين عزفت فيه موسيقى
ذلك الفنان النعس (تشيكوفسكى) وقد حملها الأثير من المنزل المجاور
لنا . وكان في هذا النغم أنين وحنين ؛ وكأنى به وهو ينسل في جو الشرفة
يحمل بين أمواجه نفوساً معذبة وأرواحاً مشردة ، وكأنى بهذا النغم يوحى
إلى النفوس بأحاسيس غريبة من الحياة فيها ملل ويأس وصخب وتمرد
وتوبة وتكفير ، وصلاة حزينة . وما أن انتهت هذه الموسيقى الساحرة
حتى خرجت هدى عن صمتها وقالت وفي صوتها أسى وشجن وكأنها
ترسل بين كل حرف وحرف دمة سخينة .

« قد يكون الرجل قسا وأمعن في قسوته على هؤلاء الأبرياء ،
ولكنه لم يكن ليفعل غير هذا . فقد صدر انتقامه عن محض جنون وهل
هو وحده الذى قسا في هذه الدنيا التى تزخر بالظلم ! أو لست هناك
عذارى عشن كالراهبات ولم تقم حولهن أسوار !!! ؟

وترقق الدمع فى عيني هدى ، وفكرت أنا فى الغرف البيض
الثلاث التى زينت جدرانها بصور رجال لم أعرفهم ، وفى الدخان المتصاعد

من لفافات التبغ المحترقة وعرفت في كل هذا حين المرأة إلى الرجل ،
وإلى العش ، وإلى الأطفال .

وعادت صور الماضي تمر أمام نظري سراعا متلاحقة . وألهبت
الذكرى في قلبي عاطفة كانت كامنة . وما قد مرت الأعوام وأنا أرى
أطفالي الصغار يرسون حول أمهم الحنون هدى .

الاعتراف

قال القاضي في تأثر عميق : « أما أن لك أن تخرجي عن صمتك يا مرجريت ؟ فكري في وحيدتك وما قد يصيبها بعدك من نكبات .. ان هذه الطفلة في حاجة إلى عناية الأم وعطفها ! . »

اعتدل المخفون في مقاعدهم وساد قاعة المحكمة سكون رهيب بدده وقع أقدام طفلة دفع بها الحاجب إلى داخل القاعة ... أفاقت مرجريت من غشيتها وهرعت إلى الطفلة وحملتها بين ذراعيها وانهاالت عليها تقبلها في حرارة ، وأجهشت بالبكاء ، ثم أسامت الطفلة بعد ذلك إلى الحاجب وقالت : « سأتكلم من أجل هذه البريئة : نشأت في بيت خالتي ولا أعرف لي أمًا سواها ، وقد غمرتني بحبها وعانت الكثير من شظف الحياة وكابدت وعالجت شتى المهن لتوفر لي سبل العيش الرغيد ، فأجرت أحدي غرف منزلها لشاب فنان لزيد في دخلنا الصغير ، وأنس الينا هذا الشاب وتوثقت بيننا وبينه مودة خالصة . وكثيرا ما ضحى وقر على نفسه ليساهم مع خالتي في إسعادي . وصادف أن زار خالتي رجل ناهز الخمسين تربطه بها صداقة قديمة ، وقد عاد من أمريكا بعد أن أثرى وكان الرجل أنيقا في ملبسه ، تم أسارير وجهه عن قسوة بالغة ، يكره الفنون ويعتقد أن أصحابها كسالى ، فهو من طراز الناس الذين يعبدون المال ويجمعونه بشتى الطرق . وكثير تردد هذا الرجل على منزلنا وأخيرا

وضحت نيته فقد كان يرغب في الزواج مني ، وصادفت هذه الرغبة تهوى
في نفس خالتي ، وألحت علي وألحقت ، وقلومت ما شاءت المقاومة ،
وأخيراً رضيت به زوجاً علي كره مني ونزلت بذلك على أرادة خالتي ،
لقاء ما لاقت في سبيلي من عناء ونصب . وقد هيا لي زوجي كل
أسباب العيش وأغدقني على من النعيم والهدايا الشيء الكثير ولم أكن
أشكو إلا من غيرته الجامحة إذ لا يفتر يندد بهذا الشاب الفنان ويسىء
بذلك إلى سمعتي في كلام جارح .

مرض صديقي الفنان مرضاً خطيراً ، وكان لزاماً أن أعوده وأسري
عنه وأساعده ببعض المال فأرد بذلك بعض ما طوقنا به من صنيع .
وصارحت زوجي بذلك فازدادت معاملته لي سوءاً وتجهم لي وطفق يرميني
بأقبح السباب . . . مات صديقي الفنان فخرنت عليه وبكيتته ولم أشأ
إظهار حزني مخافة أن يستحيل زوجي وحشا ضارياً يفتك بي . . . وفجأة
تبدلت معاملته لي وغدا لطيفاً وسياً ورجاني ذات مرة أن أسافر إلى أحد
المصايف لأروح عن نفسي ، واعتذر من عدم إمكانه مصاحبتي لكثرة
أشغاله . وتمني لي سفرأ سعيداً وودعني خير وداع .

وكان المصيف غاصاً بالناس يموج بهم الشاطئ ، ولفقت نظري وجود
شاب اعتاد أن يجلس كل صباح الى لوحة الرسم وقد أرسل شعره على كتفه
وكان هذا الشاب جميل الطلعة ممشوق القوام في عينيه براءة الأطفال ،
وقد دفعني الفضول إلى التقرب منه والتحدث إليه ، فرأيت اللوحة عاطل
من كل رسم وسألته عن سر ذلك فابتسم وأشار إلى البحر . . . فكرت

في هذا الشاب طويلاً وجهات أغلب مشاعري وأقاوم هذا التكفير فلم أقو على ذلك وصرت أقابله كل صباح ومساء . وحدث ذات مرة أن تقدم إلى الشاب وكنت وحدي وقد بدا على وجهه حزن شديد ، ودهشت عندما جثا على الأرض يقبل قدمي ويبللها بدموعه ويتوسل إلي أن أغفر له نذاته ! ثم انتصب واقفاً وأنا لا أفهم شيئاً من هذا وصارحني أنه لم يرسم في حياته خطأ واحداً وهو موفد من قبل زوجها ليوقمها في شباك غرامه ، ويسهل لهذا الزوج عمالية الطلاق منها وقد استعان على ذلك بممثل دور الفنان الذي أحبه ، ولكنه بدلاً من استدراجها إلى شباكه ، إذ به يقع في غرامها ، — ثم تضرع إليها ألا تحقره ، وقد أغراه زوجها بالمال الوفير ووعداً أضعاف ذلك عند إتمام الصنفة .

مرت بخاطري شناعة هذا الموقف الذي وقفه مني هذا الزوج وأدركت سر هذا التغيير الأخير نحوي ، وحلقت في وجه الشاب وتبلى الصدق في عينيهِ الواسعتين . ثم سألته عما اعتزمه بعد ذلك فأجاب بأنه سيفر من هذا المكان ويحاول التكفير عن ذنوبه ، ورجاني أن أتقبل توبته ! اشتد مقتي لهذا الزوج ووددت لو أنه أمانى أركله بقدمي وأصنعه وأنحيت على الشاب أقباله وقلت له في وله : « أصادق أنت فيما تقول ؟ » فكان جوابه قبالات ودموع ...

لم أعد أحفل بعد ذلك بالناس وأخذت أظهر مع هذا الشاب في كل مجتمع ، نرتاد المراقص والمشارب ونلهو ونلعب ، وذات مساء طلب مني

أن تناول العشاء في غرفته وأحضر في هذه الليلة مالد وطاب من صنوف
الطعام والشراب وأسرفت أنا في احتساء الشمبانيا وارتميت في أحضانها
يقبلني وأقبله ؛ وفجأة فتح باب الغرفة وأطلت منه ثلاثة رؤوس تبينت
في إحداها وجه زوجي وقد ظهرت عليه ابتسامة صفراء ثم غابت هذه
الرؤوس الثلاثة وأقفل الباب وفام الشاب وقال في وداعة مصطنعة
وداعاً يا مرجريت وهم بتقبيلي فدققتني عني ، فقال : « يوز على أن أذهب
دون أن أقبلك للمرة الأخيرة ، ولكنني على موعد مع زوجك لأقبض
منه بقية الأتخاب وأبحث عن أزواج آخرين ! » صعد الدم الى رأسي
واختلطت منه مسدسة وهددته بالقتل إذا هو فارق الغرفة فكشف لي
صدره وقال : « أطلقني على رصاصك إذا كان في مقدورك هذا ! إنك
لا تقتلين ذبابة » ثم ضحك في تهكم وأردف قائلاً : « الآخرين يا مرجريت
أنتي أمثل دوري أحسن تمثيل ؟ » وهم بالخروج . فتأثرت تأثرتي وغدرت
كالجنونة لا أعى شيئاً وأطلقت عليه الرصاص فهوى على الأرض صريعاً
مدرجاً بدمه وقال في صوت خافت : « لم أكن أحسب أبي ساموت
يوماً ما بيد امرأة ! فإلى الشيطان ! »

سكنت مرجريت وبدا التأثر العميق في وجوه النظارة . وتداول
المخلفون الرأي فيما بينهم وتلت ذلك فترة سكون وقف على أثرها القاضي
وقال : « لقد عانيت كثيراً أيتها البائسة ، فعودي إلى طفلتك ! »

الجثة الحية

... قال صديقي رضوان : « سأقص عليكم الليلة قصة اقتبستها من أدب الغرب وأسميتها (الجثة الحية) » وما كاد يبدأ حديثه حتى انبرى له أحد الرفاق وقد اشتهر بيننا بالعناد والمشاكسة وصاح قائلاً : « دعونا أيها السادة من هذه الفواجع ، وتعالوا أحدثكم عن قصة فيها مقامرة وتسلية . وقد اخترت لها اسم (موقف حرج) - ولم يعبا رضوان بهذه المقاطعة ، واندفع يقول في غير مقدمة :

« اجلس تلصق في أحد مقاهي بودابست المتواضعة يحتمس كأساً من النبيذ ، ويجلس رجل قبالة يطيل النظر إليه في جرأة ، ثم مالبت أن تقدم إلى تلصق وقال ! « هيهات أن تخونني ذا كرتي رغم تنكرك في هذه الثياب الغريبة . . . قال لي بربك هل أنا في حلم لقد حسبناك مع الموتى منذ أن نفتك الصحف وقرأنا خبر انتحارك بعد أن عثر على ملايسك عند شاطئ نهر الدانوب ، وفيها خطاب توصى فيه بأن يتزوج صديقتك فرانس بعد موتك من امرأتك سونيا ، التي حزنت لفقدك حزناً يكاد يؤدي بحياتها . وأخيراً ، وبعد تردد طويل رأت سونيا أن تحقق رغبة راحل عزيز ، فنزلت على إرادتك وإلحاح الأهل ، فقبلت الزواج من فرانس بعد أن رفضت بده مراراً قبيل زفافها إليك ، وهي تعلم أنه جد شغوف بها ، ولم تكن المسكينة لتأبه بحبه فقد أعماها حبها لك . . . والآن ألا ترى أنك اقترفت خطيئة

يحرمها الله وتأبأها عليك الكنيسة...؟ فقد دفعت بحماقتك هذه
بريئين إلى زواج محرم ملعون ! »

بفت تلكى لهذه المفاجأة التي لم يكن ينتظرها بعد أن هجر بلادته
وانضم الى عشيرة الفجر يقاسمهم عيشهم ويلبس لباسهم ، وقد أحب
من بينهم فتاة حسناء يقال لها ساشا وهام بها . واتخذها عشيقته وأغلق
عليها وعلى أهل قبيلتها مالا وفيراً أسكت به فضولهم .

وأدرك تلكى حرج موقفه ، وساورته المخاوف ، وخشى
أن يفضح الرجل أمره ويشي به ، وهو يعرف أن طلاقه من سونيا
مستحيل ، فقد حاول أكثر من مرة وباء بالفشل لأن الزواج في عرف
الكنيسة رباط مقدس ، لا تنفصم عراه إلا بالموت . وقد أحب ساشا
وأخلص لها وتنكر لزوجته وبرم بالعيش معها تحت سقف واحد .
وهجر بيته الى حيث توجد هذه الفجرية الحسنة يراقصها ويشاطرها
حياة اللهو وكثيراً ما سعى إليه (فرانس) يبذل له النصيح ويستعطفه
حيناً ويقسو عليه حيناً آخر عساه يثوب الى رشده ويعود الى زوجه !
ولم يكن ليحجيب على هذه التوسلات إلا بتريد بعض أغاني الفجر
المتنقلة ، ثم يناوده هدوءه ويقول لصديقه أنه ليس جديراً بحب سونيا
الطاهر وأن فرانس أصالح لها منه ، فهو يفضلها في كثير من صفات
الزوج الصالح .

عاودت تلكى ذكريات عدة فراح ينشر صحائف ماضيه مع زوجته
التمسة ، ويردد بينه وبين نفسه ما كان يقول لها وهي فتاة غرة :

« نحن يا سونيا أنصاف أشباح ضالة يهيم على غير هدى فوق هذا الكوكب ولا نفتأ نتخبط ونتمثر حتى يظفر كل شق بشقه فلا يعود يهيم لأنه اكتمل » — أما الفتاة فكانت تجيبه في براءة الأطفال بأنها عثرت على نصفها المفقود ، وهي جدة سعيدة لهذا . . . ثم تنظر إليه في رجاء واستعطاف وتقول : « أما آن لك يا تلميذ أن تشر على نصفك الآخر فلا تعود تهيم وتكتمل ! » . أما تلميذ المسكين فلم يكن يحير جواباً على هذا السؤال البريء الذي يطنح بالحب له والذي صدر عن عاطفة جاحجة كثيراً ما تأخذ بمشاعر الفتيات في مثل هذه السن الصغيرة . كانت سونيا تحب تلميذها حقاً ، ولم يكن يبادلها هذا الحب ، فقد كان من هذا الطراز من الناس الذين خلقوا لأنفسهم ، لا يريدون من الحياة إلا حلوها ، فقد نشأ تلميذ غنياً ، لم يعرف شظف العيش ولم يعان مر الحياة ؛ وما له يتحمل في حياته السعيدة تبعات جسام ما كان أغناه عنها وما له وهذه الحياة المسلة في ظل زوجة وأطفال ، وهو بوهيمي بطبعه يبحث عن العرض الرخيص والهوى .

ولا يزال يهيم على وجهه نصف شبح ضال فوق هذا الكوكب يتخبط ويتهمثر بين أشواك وأزهار ويظل كذلك يهيم حتى تنفي زهرة شبابه الغض فهو لا يريد أن يكتمل . وفكر الفتى في صديقه الطيب القلب فرانس الذي كان يطوى في قلبه الكبير حبا دفيناً لسونيا وما كان له أن يبوح به لها وهو يراها تهيم بتلميذها ، ولعله هو الآخر نصف شبح ضال يضرب في الأرض على غير هدى ! وها هو ذا كلما اقترب

من شقه الآخر سونيا فر منه هذا الشق ولاذ بشق آخر حسبه نصفه المفقود ولكن سرعان ما تتبدد أحلامها فهو لم يعثر إلا على تمس منكود يتخبط ويتعثر بين أشواك وأزهار لأنه لا يريد أن يكتمل . وهما هي ذى أنصاف الأشباح قلما تتلاقى وقد تحسب أنها وفقت إلى إنصافها ، فترتبط معها بروابط من نفاق وختل في غمرة من غمرات الحياة ثم تصحو من غفوتها وتحاول أن تتخلص من إسارها وتمهيم مرة أخرى إنصاف أشباح ضالة . ولكن الكنيسة تأبى عليها ذلك . . .

ظل تلكى يفكر ويفكر حتى أعياه التفكير . وتمثل أمام عينيه منظر زوجه وصديقه وهما يساقان أمام القضاء لتفصل بينهما الكنيسة وتعود سونيا لتعيش مع جثة حية ويهود فرانس بطوى بين حنايا قلبه حبا كان قد بعث بعد أن ظل دفيناً . . .

دخل الجرسون وأسر في إذن رضوان بعض كلمات شرح رضوان يوسع الخطى ونحن نشبهه بمنظرات متسائلة ، ثم التفتنا إلى صاحبنا المشاكس ، وقلنا له « هات ما عندك ! » . فاعتدل في مكانه وراح يقص علينا قصته فقال :

« أخذ هرمان القطار من ليزرج في طريقه إلى ميونيخ وحجز له سريراً في عربة النوم — سار القطار ينهب الأرض ويطوى الهضاب والأودية بين مناظر خلابة خلعت عليها الطبيعة جمالا دونه كل وصف على أن هرمان لم يعر هذه المناظر اهتماما . فقد كان مشغولا يفكر في حسناء فاتنة أخذت مكانها في عربة الأكل . فبسم لها وأحنى رأسه

يحيطها فردت تحيته ، وابتسمت هي الأخرى ابتسامة جعلته ينهض من مكانه ويتقدم إليها ويستأذنها في الجلوس إلى مائدتها فقبلت راضية .
أحضر الجرسون ما لذ وطاب من ألوان الطعام والشراب .
وظفق هرمان يحدتها في غير ما كلفة حديث الصديق ويتكلم كثيراً عن مفامراته — شرباً من النبيذ والشبانيا الشيء الكثير ودبت الخمر ديبها ، وعملاً ومضت هي الأخرى تتكلم عن مفامراتها . وعرف هرمان أنها ممثلة مشهورة تطوف عواصم أوروبا للترويج عن النفس بعد انتهاء عملها المضنى في موسم التمثيل . وهي تقصد اليوم باريس في آخر رحلة لها تنصم وتلهو .

قام هرمان وصاحبه يمايلان لفرط ما أسرفا في الشراب . وودعها ودخلت عربة النوم الملاحقة لعربة نومه

مضى إلى سريره ، وخلع ملابسه وارتدى (بيجامته) وحاول النوم فاستعصى عليه ، وجعل يفكر في هذه الحسنة التي سلبته ليه وهم بالذهاب إليها فخائته شجاعته ثم عاودته جراته الخمر وسار إليها وطرق الباب ودخل وجلس على حافة سريرها . وأخذ يتكلم عن حبه لها وشغفه بها ، وكلامهم بالذنب منها دفنته عنها في لطف وأدب فيعود إلى مكانه معتذراً

جعل هرمان يهدى ويهرف في كلامه ويطلب إليها أن تعاهده على الحب والزواج فتوسلت إليه أن يخفض من صوته مخافة أن ينتبه إليها أحد ، وطلبت إليه في رجاء ملح مبارحة هذا المكان

فتح هرمان النافذة واندفع هواء بارد يملأ رئتيه فاستفاق من

نشوته ودهش أيما اندهاش وهو يقرأ أسماء بعض المحطات وكانت غريبة عليه . وأدرك المسكين أن القطار يسير في طريق لا عهد له به . وأن عربة نومه ألحقت بقطار آخر في مدينة (هوف) وهي في طريقها الآن إلى مونيخ وفيها حوائجه ونقوده وحتى تذكرة سفره وها هو يقف الآن غريباً في هذه العربة لا يملك غير (بيجامه) يستر بها جسمه ظهر رضوان فجأة ولم يمهلنا أن نسأله ومضى يتم قصته فقال :

« حدث ما توقعه تلكى ووشى به صاحبه ومثل أمام القضاء وحضرت سونيا وفرانس ليدليا بشهادتهما وقد كان موقف سونيا دقيقاً ، وهي بين زوجين تشهق بالبكاء وتتنازعها عوامل الحيرة والنشل ولا تدري ما يبئس لها القدر ؛ فيها هو زوجها الأول حتى يرزق بعدما حسبته ميتاً !

وجهت إلى تلكى تهمة التضليل ليحقق زواجا باطلا لا تقره الكنيسة . وقال في دفاعه عن نفسه أنه ارتضى أن يعيش بين الناس جثة حية مساوب الحقوق وخرج بذلك على التقاليد والقوانين ليكفل لامرأة تعيسة سعادتها الزوجية بعد أن ضنت بها الكنيسة .

وثارت ثائرة القاضي لهذا التمويه وحكم ببطلان الزواج الجديد . فأخرج تلكى على الفور مسدسه وأطلق على نفسه الرصاص لينقذ الموقف ، و بارك الزوجين وهو يعالج سكرات الموت

الاسماك الجائفة

كانت السفينة التي أعمل فيها تقطع رحلتها بين الإسكندرية وتريستا وكان عليها أن ترسو في ميناء « بيريه » لتفرغ شحنتها وتشحن من جديد ، ولم تكن تقل ركابا إلا بعض البحارة الغرباء الذين يتخلفون في الثغور لأسباب ملحة ، وقد انضم إلينا أحد هؤلاء البحارة وكان قد أودع مستشفى المدينة أثر حادث أصابه في مشرب من مشارب بيريه . كان الرجل جم المرح كثير الدعابة يرسلها حتى في أخرج المواقف وآملها ، شأن البحارة .

أبحرت السفينة من (بيريه) ومضت تشق الماء في جو معتدل وسماء صافية . وفي تلك الليلة التي ما برحت أذكرها وأرى صورها ماثلة أمامي ، تلك الليلة التي سبقت وصولنا إلى تريستا ، وقد جلسنا نحتمي برفيقنا البحار حول مائدة صفت عليها أواني الشراب وزجاجات النبيذ وما لذ وطاب من طعام شهى ، وقد لعبت الخمر برؤوسنا ، وراح كل منا يتحدث بما عن له من ذكريات البطولة والتفاخر في مبالغة أحيانا . في تلك الليلة وقف زميلنا البحار فجأة يتناول بقامته القصيرة ووجهه الذي كان لا يزال شاحباً وعينيه الضاحكتين الماكرتين وأشار بأصبعه صوب الشاطئ ، الصخري ، وكان الثمر في صراع دائم مع السحب الكشيفة التي كانت تحجب عنا صفحة السماء . . .

قال صاحبنا في هدوء مصطنع :

— أنظروا يارفاق إلى تلك الصخور القائمة ! فوالله أنى لأرى عليها
الدماء البشرية وأسمع سقوط أجسام الضحايا الموثقة ، وهى تقذف من
عل فتلقفها الأمواج ، ويسرع إليها (أبو مورينة) — ذلك السمك
الذى كان الناس يمتقدون أنه لا يكبر ولا يجود لحمه ويطيب إلا إذا أطمع
وأشبع من لحوم الجوارى الحسان — وأنى لأرى كذلك صفحة البحر
وقد امتزجت بالدماء وبين آن وآخر تنفجر أمواجها عن أشلاء متناثرة
ومن عجب أن الحياة لا تزال تدب فيها ! أنها لم تزل تدب فيها الحياة
فيسبح كل شئ منها إلى شئ ففتكامل منها أجسام حية وتتنصب فوق
الماء فى قامات فارعة يتدلى شعرها الفاحم فوق ظهور فاتنة ، وترسل
عيونها نظرات ساحرة تفيض حباً ورحمة . وهاهى ذى أمحى مائلة ،
وقد انتظمت حلقات حلقات ترقص رقصة الموت وتنشد أناشيد الأسمى
والشجن وتحت أقدامها سمك المورينة الجائع يتطلع إلى هذه الأجسام
البضنة الناعمة الفتية ولا يستطيع لها طلباً ، فماهى إلا خيالات ضالة فى
هذا الخضم الفسيح تهيم حيناً ثم تشب فوق الصخر وتنبطح عليه وقد
انفش شعرها ، وماتت الأبتسامة عل تلك الشفاه الغضة التى كانت
يوما ما تبسم فى مروح الشباب ورونق الحياة . . . وهاهم أولاء عمالقة
الجلادين غلاظ الأكباد قد شرعوا يشدون وثاق هذه الجثث الحية ثم
يقذفون بها واحدة أثر واحدة فى فترات متباعدة إلى تلك الأسماك
الجائعة . . .

وعاد صاحبنا إلى مقعده ورجع إلى شرابه يعبه عبا ، ومضى يقليب

ناظره في وجوهنا المتلينة إلى سماع حديثه ، وقد شاعت في أساريه
علام الخبث. ولعله كان يطر به ما يحسه من شوقنا وتلفنا إلى استرساله
في هذا الحديث الممتع ، غير أن صمته لم يطل فقد رفع رأسه وقال :

« ما أظنكم رأيتم ما رأيتم ، على أن مخيلتي لم تختلق هذه الصور
ولم تنسجها من خيال أو وهم ، ولكنها وليدة قصة وقعت حوادثها في
عصور خلت أيام أن كان للوثنية شأن ودولة وعز وصوله ، وكانت
المسيحية في فجرها الأول ما تزال طفلة تتمتر أمام تلك العول الوثنية التي
كثيراً ما عدت عليها وأذاقها مر العذاب ونكلت بها وتتمرت لها . . .

كان أنطونيو من أشرف مدينة (فينسيا) وسراتها . وكان وسيم
الطلعة واسع العينين ، مديد القامة ، ولم يكن كغيره من الأشراف متكبراً
بل كان على العكس وديماً رحيماً ، وقد حبه هذا إلى أبناء وطنه ، وكان
واسع النفوذ كريم الخلق ، فنعيم بحب الجميع وحظى بعطف قيصر . . .

تعلق أنطونيو بالفتاة ماريانا إحدى بنات الشعب . وكانت الفتاة
بارعة الجمال كأنها تحفة نادرة أو تمثال حي من آيات الفن صاغتها
آلهة الرومان على ما تشتهي وتشاء . أما عيناها فكانتا جوهرتين فانتين
انترعتا لونهما من زرقة البحر ، وكانتا عميقتين لا يسبر غورها ، ساحرتين
في نظراتهما فتنة وإغراء ، أو قل كانتا ترسلان سهاماً تشيع في النفوس
الخوف ، وأشعة رقيقة تبعث فيها الرجاء .

تمت الخطبة بين الفتى والفتاة ، وراحا ينعمان بالحلب ويرشقان من
منهله العذب ، فلم يتركا جنة إلا أظلمتهما أغصانها وأحاطت بهما فيها

الورود والرياحين وصدحت لهما الأطيوار بأناشيد الغزل والنسيب . وكان
الفتى يسر في أذن حبيبته كلاماً حاولوا فيه رقة وعذوبة ، وكثيراً ما حدثها
عن جمال الحب الذي يظل كل حى في الرياض ، ويقول : « إني لأراه
في عش الطير حانياً على صفاره ، وأراه في ثنايا الأزهار تنقله الحشرات
من كم إلى كم ، وقد يسمدنى كما يسمدك أن نرى لنا طفلاً يكون موضع
حبنا وزهرة آمالنا ، وإني لتواقي إلى أن تصجل فنبنى هنا هذا العش
الجميل ! »

وكان أن بنى لها ذلك العش ووهب لها فيه غلاماً ، ولكنها أغضبت
عينها وأشاحت بوجهها عن الطفل عند ما دفعته إليها إحدى القابلات
ودهش الحاضرون ، كما دهش الزوج عند ما رأى جفوة الأم وإصرارها
على أن يفصل بينها وبين ابنها مدة اعتكافها ؛ وما كادت تماثل حتى فرت
وهجرت العش وخلفت فيه الزوج البأس والطفل الضعيف . وتركت
للزوج رسالة تبين له أسفها الشديد على ما فعلت إذ لم يكن في طوقها
أن تفعل غيره وأنها لم تركن إلى الفرار إلا حرصاً على حياة ولدها
ولتنقذه من موت محقق ، فقد كانت أمنية الزوج أن تنجب له هذا
الطفل العزيز لينعم بحبه فأرادت أن تحفظه له ليكون أنفـس تذكـار لها
عنده ؛ وفسرت ذلك بأنها خشيت على طفلها من نظرات عينها ، فقد
أخفت عن زوجها أنها كانت كلما نظرت إلى طفل لا تلبث أن تسمع
نفيه بعد يوم أو يومين ، وأنها كانت تألم لذلك الألم كله ، وتعجب

كيف تنقلب هذه النظرات التي كثيراً ما قيل إنها حلوة جذابة سيما زعافاً يقتل هؤلاء الأبرياء الصغار ، وقالت في رسالتها « لقد حدث وبالهول ما حدث ، أن جاء أخى يتوسل إلى أكثر من مرة أن أزوره لأرى ابنه الصغير ، فكنت أنلمس المعاذير وأتفقها لأننى هذه الزيارة . وأخيراً ينس أخى من ذهاني إليه ، فحضر ومعه طفله ودفعه إلى فمات هذا العزيز بعد أسبوع . . . »

« وهكذا ترى أيها الزوج العطوف أننى إنما قررت لينجو ولدنا من هذه النظرات القاتلة ؛ وقد استقر عزمى على أن ألبأ إلى أحد الأديار المسيحية التى يتعبد فيها الناس خفية ، وأنى لأقدم هذه التضحية راضية مطمئنة عسى أن يبدلنى الله بهذه النظرات القاتلة نظرات أخرى تحيي القلوب ، فهم يقولون إن هذا الرسول الجديد يشفى المرضى ويحيى الموتى ، فلهذا يشفينى مما أنا فيه من تعس وشقاء . »

وأنضمت ماريانا إلى أحد الأديار التى تعمل فى الخفاء على نشر المسيحية رغم ما تلاقيه من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد ، وكثيراً ما كان يداهم عمال قيصر وجندهم هذه الأديار ويدكونها دكا على من فيها من أحياء ، وقد يأخذون من يبقى من ساكنيها حياً ويلقون به فى البحر إلى الأسماك القرمة . . .

وحدث أن دهم الجند دير ماريانا وأخذوا الراهبات ، وكان فيمن أخذوا هذه الراهبة التى وهبت نفسها بعد زوجها للسيد المسيح ، وصالت كثيراً وانقطعت للعبادة وضحت بهذا الشباب الغض الذى ذبل

بين جدران سحرها الصغير ، ترمح فيه أمام الصليب واصلة ليديها بنهارها حتى اخنفت من نظراتها ذلك البريق الخفيف الذي يبعث الرعب والفرع في قلوب هؤلاء الأبرياء الضعفاء .

قبض الجند على هاته النسوة الضعيفات ، وأوثقوهن وأرسلوهن إلى تلك الصخور الممتطشة لدم الضحايا ، وإلى الأسماك الجائعة لتمتدني وتشبع ويحجود لحمها ويغيب ويصلح لموائد القياصرة ، ويقدم قربانا على مذبح الآلهة !

وضعت هذه الجثث الحية الموثوقة فوق الصخور ومن حولها الجلادون العالقة وقد وقف كبيرهم على رأسهم ملوحا بيده فيلقون بأحدى هذه الضحايا التسعة إلى البحر . وما أن سمع انطونيو بكارثة الديروما انتهت إليه وعلم كذلك مآل زوجه الراهبة ، وكان لا يزال يكن لها الحب كله حتى أسرع وحظي بمقابلة قيصر ورجاه وألح في الرجاء واستعطفه وألحف في الاستعطاف حتى فاز أخيرا بعفو قيصر عن زلة زوجه على شرط أن تهجر دينها الجديد وتعود إلى الوثنية الحقنة دين قيصر ! وسلم انطونيو رسالة فيها أمر بالعفو عن الراهبة ماريانا .

امتطى أنطونيو صهوة جواده وأخذ يضرب في الأرض ويطويها طياً وهو يلوح بالرسالة في يده فرحاً بما وصل إليه ، قلقاً من أن يصل بعد فوات الوقت ...

وفجأة توقف صاحبنا البحار عن الحديث ، وكان قد نكس رأسه ثم رفعه ومضى يهذي بكلام غامض غير مفهوم لكثرة ما شربه .

وساد المهرج والمهرج بين الجماعة التي احتدم بينها النقاش ، وقام صاحبنا
مثناقلاً إلى سريرته في السفينة وطاقق يفظ في نوم عميق .
ولما أصبح هررنا إليه والتفطنا حوله ورجونا أن يتم حديثه ، فنظر
إلينا ساخرأ وقال :

« أى حديث يارفاق ؟ ! دعونى أذهب إلى منزلى لأقابل

زوجى وابنتى ! »

فصاح به أحدنا :

« أ كنت إذاً تكذب على التاريخ ؟ »

فأجاب صاحبنا فى غير اكترات كأنه لا يعرفنا :

« إن التاريخ يا سادة لزخار بالأ كاذيب ! فلم لا نضيف إليه

أ كذوبة أخرى ؟

وغادر السفينة ونحن نشيعه بنظرات مأوها الحنق والفضب .

بيت الشموع

بماقرت إلى إحدى المدن الجبلية لقضاء عطلة عيد الميلاد . وحدث
أن خرجت يوماً بمد الظهيرة أرتاد الأحياء المجاورة وأجوس خلال
الغابات ، ولنت استرشد في هذه الرحلات القصيرة بالأسهم الملوثة
الموضوعة فوق الأشجار ، وجعلت أهبط الأودية وأصعد القمم القريبة ؛
ولما أعياني التعب استلقيت على العشب ونمت نوماً عميقاً — ثم صمرت
على صوت الرعد الذي كان يهز الجبال ، وقد خيم الظلام فوق الأرجاء ،
وانهمر المطر غزيراً ، فلم أجد بداً من الرجوع صوب المدينة ؛ ولكن
حالت دون ذلك شدة حلكة الظلام المفاجيء ، فكنت أضرب في
الأرض على غير هدى ، ولم أعد أتبين لون الأسهم ، ولم أعر على عاصم
يقيني شر المطر . واشتدت الزوامة ، فضرت أعدو كالحيون تطارده
كلاب الصيد إلى أن بلغت الطريق العام .

وما هي إلا هنيئة حتى سمعت صوت سيارة تدنو وتقف على بضع
خطوات مني ، ثم فتح بابها وهبط منها رجل أنيق طويل القامة نحيل
لبس ذو عيين واسعتين تم نظراتهما عن رحمة وطيبة . . . تقدم الرجل
ومحرف نفسه إلى ، فأذا هو من أشرف الناحية ودعاني لاصطحابه في
سيارته ، وألح في أدب أن أمضي معه تلك الليلة وقال إن زوجته ستسر
بهذه المفاجأة وهو يحتفل الليلة بعيد ميلادها ، وقد أحضر لها من المدينة
بعض الهدايا والتحف ، ورجاني أن أقبل دعوته لأدخل السرور عليهما
في هذه الوحدة المضيئة .

قبلت الدعوة في خوف لا أعرف مصدره ! وسارت بنا السيارة حتى وقفنا أمام قصر أنيق ، ثم وجدته أسير في حديقة نسقت أحسن تنسيق . وكان الخدم بملابسهم المزركشة يفتحون أمامنا الأبواب ؛ وقد استرعى نظري كثرة ما أضيء في هذا القصر من شموع كأنه كنيسة أعدت لاستقبال راحل عزيز ! وجمعت انتقل مع صاحب القصر من حجرة إلى أخرى ، وطفق يشرح لي ما بها من تحف ثمينة أهدرها من مشارق الأرض ومغاربها إلى أن انتهى بنا المطاف إلى غرفة هدايا زوجه ، فأخرج من جيبه بعض الخلى وأرانها ، فتولاني وعشة . ثم وضعها إلى جانب مجاميع الهدايا الأخرى ، وكتب عليها تاريخ السنة الحالية .

وقال في ظرف أن زوجته ستسر هذه الهدايا أيما سرور ! وأمر أن يعد طعام العشاء لثلاثتنا . واقتراني بعد ذلك إلى غرفة المائدة ، وكانت مضاهة بالشموع التي ينبعث منها نور هاديء يبعث في النفس الحزن . وكان في الغرفة شتى أنواع الأزهار البيض ؛ وقد لاحظت أن العشاء قد أعد لثلاثة فقط . فدعاني للجلوس وقال إن ربة الدار مستحضرة حالا للحفاوة بي ، وإنه ليسرها أن أكون بينهما هذه الليلة لأدفع عنها الملل والضجر ؛ وأوما إلى الخادم أن يحضر الطعام وأن يخبر سيده أن كل شيء قد أعد ، وأتنا في انتظارها !

وما هي إلا لحظات حتى جيء بالطعام ودخل أحد الخدم بعد ذلك يخبر سيده أن سيده ترحب بالضيف الكريم وتعتذر لعدم إمكانها

الجلوس معنا إلى المائدة لصداع أليم أصابها ، وهي تأسف لذلك شديد
الأسف ، وتعد بالحضور أن أمكنها ذلك ، وقد طلبت أن يعد لها الطعام
في غرفة نومها !

فلم نجد بدأ بعد ذلك من تناول العشاء دونها ؛ وطفقنا نأكل
صامتين ؛ وكان المسكان موحشاً رغم ما به من بهجة مصطنعة . وبعد
أن فرغنا من الطعام أرشدني إلى غرفة نومي وأسف لمرض زوجته
وتمني لي نوماً هادئاً وأحلاماً سعيدة ، وانحني مساماً وتركني وحيداً .
خلعت ملابسى وحاولت النوم فلم أذبح ، وتراءت أمام عيني صور شتى
لأعزاء فقدتهم وتخيلت كأنى فى مقبرة أرى العظام النخرة وقد اكنست
لحمًا ، وانقضت واقفه تراحم بعضها بعضاً وتحولت المقبرة إلى مكان فسيح
فيه أشجار يانعة وأزهار غضة . ثم دق جرس كنيسة معلناً قدوم
مروسين — وانقلب المكان فجأة خراباً يباباً . ودق جرس الكنيسة
لكنه فى هذه المرة كان دقاً حزيناً يعلن موت عزيز ؛ وكنت أسمع
وأنا فى هذه اليقظة الموحشة أصواتاً مفزعة وأنياماً مقطعة ، كأنه حشرة
الموت ، وكثيراً ما سمعت صوت سقوط أجسام غريبة ، وخيل إلى كأنى
أسمع صوتاً يزجر ؛ ثم يتهدد ، ثم يرسل ضحكات عالية يسخر بها من
بطش القدر . . . وكانى أسمع بين هذا وذاك صوت فأس يهمل فى الحديقة
بوحشية ، فتخر أمامه الأشجار والأزهار كأنه صوت الفناء . . .

لم أنم هذه الليلة ؛ وكنت أطلب من الله أن لا يطيل آية الليل
لأخرج من هذا الجحيم . وما أن انبلج الصبح حتى ارتديت ملابسى ،

وأسرعت في الخروج من هذا السجن ، فوجدت الحديقة على غير ما
وجدتها بالأمس : خراباً بليغاً ! وقابلت صاحب الدار فوجدته ذا عينين
شاردين يتطاير منها الشرر ، ووجه مكفهر غابت عن أساريره
الوداعة والرحمة ، وقد علق بملابسه الوحل والتراب مما قد عاناه في ليلته
من صراع مع عناصر خفية جبارة ! فأقربت منه وأنا لا أفهم من كل
هذا شيئاً لأشكر له وأشكر للسيدة المحترمة هذه العناية الفائقة ، ودهشت
لنظرات الرجل الشاردة وابتعاده عني كأنه لا يعرفني ، فهزولت خارجاً
فقابلني أحد الخدم فاستفسرته الخبر وطلبت إليه أن يحمل بالنيابة عني
آيات الشكر إلى السيدة والسيد ، فقاطعتني قائلاً « أية سيدة ؟ » فقلت
« ربة الدار ! »

فمسح دمعتي وقال « وارجعته لها ! — قد فقدناها منذ عشر سنين
وقد ماتت في ليلة عيد الميلاد ، وقد جن سيدي من هذه الصدمة ، ولا
يفيق من جنونه إلا ليلة عيد ميلادها — وقد شاهدنا هذه المأساة طوال
تلك السنين العشر . . . وها هو ذا قد عاد إلى جنونه ! »
فمسحت أنا الآخر دمعتي وخرجت مسرعاً لا أوى على شيء ،
كأنما يطاردني هذا الرجل بوجهه المكفهر ! ودهشت أيما اندهاش لهذا
النوع الفريب من الوفاء وفاء مجنون لأحدى بنات حواء ! ! !

التمثيل الثالث عشر

... كان باب قاعة العمليات في مستشفى الجامعة يفتح في ردهة واسعة حشدنا فيها فننتظر بدء المحاضرة ، وقد انتظم الطلاب حلقات حلقات يتناظرون ويطلقون موضوعات متعددة في شئون مختلفة من سياسة وشلم إلى اجتماع وأدب ، إلى أحاديث لهو ومغامرات ، إلى غير ذلك من عبث الشباب . واختلطت الطالبات بالطلبة وعلام السرور والبهجة بادية على وجوههن ، وكن يتكلمن في غير تكلف وينفنن الدخان من أفواههن كأنهن القاطرات ؛ ولعلمن كن معجبات بأنفسهن ، يقلدن الطلبة ويتبادلن وإياهم في فخر وإعجاب كلتي « الزميل والزميلة » .

كان هذا يوم الاثنين . وقد بكرنا جميعاً لحضور المحاضرة التي ستلقى في الجراحة وكنا نحرص عليها كل الحرص عادتنا في محاضرات أستاذنا الدكتور (ل) الذي أحبيناه جميعاً لدمائه خلقه ولشهرته العالمية وبحوثه القيمة . وكان رجلاً ، فوق سعة علمه ، طيب القلب يحب الناس جميعاً ويعطف عليهم ويمد الفقراء بالمال . وكان يحب مرضاه ويضحى بكل وقته لهم ، ويعكف على الدرس ليكشف لنا عن جديد . ولم يمنعه كل هذا من الاشتراك في الجماعات الخيرية ، فكان يساهم فيها ببعض ماله . وكان في محاضراته خطيباً بارعاً يمزج الجدل بالهزل ، في ذلك اليوم — يوم الاثنين — ولعله كان في شتاء عام ١٩٢٤ كنت

أقف في هذه الردهة وإلى جانبي إحدى الطالبات وكانت بحرية من أصل ألماني . وكان لا يزال على بدء المحاضرة نصف ساعة . كانت هذه الفتاة فتاة حقاً كأحسن ما تكون الفتنة ، وقد وقفت في قامة معتدلة كأحسن ما يكون تمثال لأبرع مثال ، وقد تجلى الحسن في وجهها ولم تحاول أن تحرك رأسها أو جسمها يمنة أو يسرة ، كأنما أرادت أن تكون تمثالا . كانت الفتاة اليوم على غير عاداتها شاحبة الوجه ، كثيرة التفكير وقد دخنت كثيراً ، وما أحسبها استعملت إلاعود تقاب واحد . سألتها عن الحفلة الساهرة التي أقامتها الجامعة أمس الأحد وقلت لها : « أظنك رقصت كثيراً ، وأظن الجميع تشاحنوا حولك؟ » ولكنها قالت في حزن وكآبة « لقد منحت الأستاذ (ل) كل وقتي فلم أرقص مع أحد سواه » فابتسمت في خبث وقلت لها « أهنتك يا زميلتي على هذا الفوز العظيم ، ولعل هذه كانت بعيتك منذ زمن طويل ؛ فأنا أعرف مبلغ حبك لأستاذنا الكبير ، كما تفعل بنات المدارس عند ما يقع بعصرهن على أول مدرس وهن بعد في سن الحلم ! وما كان هذا الحب يخفى على أحد » .

فتح باب المدرج ودخلنا وفتح الباب الآخر الذي يؤدي إلى دهليز طويل ينتهي بعنبر المرضى ودخل المرضون يجرون نقالة قد ثوى فوقها مريض ودخل في أثرهم الأستاذ ومساعدوه فوقفنا وحيانا ثم جلسنا . وبعد فترة قصيرة قال الأستاذ « إن مريضنا اليوم يعاني آلاماً مبرحة من جراء خراج في المخ » واستطرد يقول « كان هذا المرض إلى وقت قريب ، يقضى على ضحاياه ونحن وقوف نشهد للأساة ولا نستطيع

غير الصلاة ، ثم نودع المريض في ألمه وجسره هما وسيلتا المعجز والقنوط ،
أما لأن فقد اهتدينا ، وما أكثر ما نهتدي إذا ما توافرنا على الدرس ،
إلى ما ينقذ البشرية من أعدائها ! « سكت الأستاذ برهة وأشار بأصبعه إلى
جهاز يشبه المحقن ثم أردف على الفور « بهذه الآلة البسيطة يمكننا سحب
صديدها الخراج لو عرفنا مكانه ؛ وهكذا أصبحت هذه العملية الخطيرة سهلة ،
على أن في هذا الدماغ البشري المعقدة ما هو شر من هذا الخراج ، وهو
ما لا أعرف مكانه ، ولا أظن أن له مكانا ؛ فهم يطلقون عليه اسم
(العقل الباطن) ويدعون أنه في الدماغ ، وأقسم لكم يازملائى الصغار
أنى لا أتردد لحظة في القضاء عليه لو وفقت إلى مكانه ! وعندى أنه لو
قدر لنا أن نخترع إنسانا آليا كما يحاول إخواننا الأمريكان فى الدنيا
الجديدة ، لكنت أول من يترك هذا العالم غير آسف ليحل محلى الإنسان
الحديدي فلا يوجد بعد الآن هذا المخلوق المريض الذى يعانى من عقله
الباطن الأمرين ، فلا نعود نشقى ! لقد أحببت التماثيل لأنها عواطل من
هذه الأجهزة المعقدة التى تحمل بين ثناياها المرض والجريمة ! »
أمسك أستاذنا العظيم وراح يتعسس رأس المريض وأجرى العملية
فى مهارة فائقة .

وقالت لى صديقتى الجرية وكانت تجلس إلى جانبي « لقد صدق
حدسى وتخمينى فقد شمرت أنه سيتكلم عن كل هذا ! » غادرت وإياها
قاعة المحاضرة وهى تجر نفسها جرا فأسندتها بذراعى وفارقنا مستشفى
الجامعة . وكانت تسير إلى جانبي تتكلم كلاما لا أفهمه وقد التصقت

بجسمي كأنها تريد أن تندمج في أي جسم آخر! وسرنا على هذه الحال حتى وصلنا إلى أحد المقاهي فهاككت على مقعد وجلست إلى جانبها ، ولم أشأ أن أسألها ما بها ؛ ولكنها تأملت بعد قليل وابتسمت في مرارة وقالت : « اغفري يا زميلي ما سببته لك من قلق وتعب ! » فبدأت روعها وقالت « ما أحسب أن محاضرة اليوم تثير أعصابك الى هذا الحد ! » قالت ليست محاضرة اليوم يا صديقي ولكنها لياة أمس الساهرة ! » فقلت على الفور « لا شك أنك نعمت بأطيب وقت بين الرقص والشراب مع أستاذنا ! » فقالت في حركة عصبية « دعك من هذا يا عزيزي ، ولا بأس على أن أكاشفك عما كابدته أمس ، فأنا أحوج ما أكون إلى من أبشع آلام ! » ثم أشعلت نفاة وقالت « لا أكتفك يا صديقي أني إنما ذهبت أمس الى هذه الخفلة الساهرة لأتمتع عن بعد وقرب بمشاهدة أستاذنا (ل) وما كنت لأهتم أن يفتضح أمر حبي له ؛ فقد شغفت بهذا الرجل حتى ملك على حبه كل حواسي رغم أنه لم يبادلي هذا الحب ، وكنت أشعر أنه يحنو على كما يحنو عليكم جميعاً ، وإذا ما انفردت به مصادفة قال لي إنه لا يجب هذه مخلوقات المكونة من لحم ودم فقد عاقتها نفسه لسكرة ما عمل بمبضعه فيها ، وخير لها أن تستحيل تمثالا فقد حبتها الطبيعة أجمل قوام عرفه مثال ! ثم يتولى عني ويتركني وأنا أشيعه بنظرات تتضارب فيها المعاني . كان أمس وكانت الليلة الساهرة وقد أخذت لها أهيتي فحجملت ما شاء لي التجميل وذهبت يحدوني الأمل ؛ وما أن وقع نظري على الأستاذ وبصر بي حتى خف إلى مرحباً باشاً وهو يقول « لن أدعك

الليلة نفرين من بين ذراعى يعصفورى الحبيب ! وسوف لاتقدمين
على مراقبة أستاذ تخطى الأربعين !» رقصت مع الأستاذ الكبير كثيرا
وشربت من النبيذ كثيرا وكنت كلما راقصته همس في أذنى قائلا
حاولى أن تكونى كالتمثال ما وسعك ذلك « وصدقنى يا زميلى أنى
برمت بهما الحديث الذى كرره كثيرا وبركته فى حلية الرقص وجيدا
دون شريكة بعد ما عاد يتكلم عن التماثيل وذهبت إلى إحدى الموائد
وجلست وأنا اشد ما أكون غيظا وحنقا على هذا الأستاذ الذى
ما حسبته معتوها إلى هذا الحد ! ولكنه ما لبث أن تبغى وجلس إلى
جانبي ساكنا وناولنى أكثر من كأس من النبيذ المجرى الذى أحبه .
فجملت أعب الكأس تلو الكأس وأنا لا أعى شيئا مما يدور حولى
لفرط ما جرعت من شراب ؛ ثم أقفت من غشيتى وجملت أعود إلى
نفسى فأمسك فى رقة وحنان بيدي وقال لى « إنك لا تعرفين يا عزيزتى
ما أعانيه من آلام نفسية ولا أود أن أفضى إليك بدخيلة نفسى فأزيد
فى ألمك وألمى بعد ما أحسست حبك لى ! ولعلى لا أكون قاسيا إذا
صارحتك وكشفت لك عن ناحية عجيبة من نواحي هذه النفس العذبة
قد تسخرين منها ! » . سكت الأستاذ وزم شفتيه وحاول أن يتكلم ولعل
الكلام استهصى عليه ، وظل ساكنا يعبت بأصابعه الطويلة فى شعره
كمن يريد أن يبدد شيئا ثم راح يلوح بقبضة يده كمن يتوعد ويتهدد
ثم يعود فيبسط يده فى حركات هادئة كمن يرجو ويتوسل . كنت
أنظر إلى الأستاذ وأراقب وجهه الشاحب وقد تراحت الأفكار فى

رأسي وهمس في فؤادي هامس يقول : ما الذي يدور في رأس هذا الرجل الطيب الذي يكاد يتحطم أمامي ؟ غير أنني ربت على كتفه وقلت له « ما بك يا عزيزي ؟ هدىء من روعك واكشف لي عن خبايا نفسك ! » . عاد إلى الأستاذ هدهده واستجمع قواه كأنه يستعمل الحركة بينه وبين نفسه وقال لي ولسانه يتعثر « أنا أحب التماثيل لدرجة العبادة وقد أنساني حبها كل شيء سواها وكل حب غير حبها ! وأني أفتني منها الكثير » ثم خفض من صوته واستطرد قائلاً « وقد يدهشك يا عزيزي أن تعرفني أنني أتزوج كل أسبوع تماثلاً من هذه التماثيل البديعة وما أرى بأساً من أن أتزوج هذه الليلة تماثلاً حياً على أن تقومي أنت بدور التمثال . . . فما رأيك ؟ » احمر وجه الأستاذ عند ما انتهى من حديثه كأنما استشعر خجلاً وهو يعترف أمامي ، ثم ما لبث وجهه أن اكفر وتخلجت عيناه وكدت أصعق من هول نظراته ؛ وعبثاً حاولت أن أتكلم أو أغضب أو آتي بحركة واست أعرف ما الذي اتتاني أمس حتى أصبحت أطوع له من بنانه ؟ ! »

« هم الأستاذ واقفاً واقتادني وأنا أسير إلى جانبه فاقدة الوعي ثم رأيتني أجلس إلى جانبه في سيارته وكان الجو بارداً ، وتساقط الثلج فانتعشت وكأني صحت من رقاد عميق فبدرته قائلة : « إلى أين ؟ » . أجاب « سنذهب بعد جولة قصيرة إلى حيث أسكن وليس هناك ما يزعجنا ، فالخادم العجوز لا تأتي إلا في الصباح وتكونين أنت قبل ذلك بساعات في منزلك ! » ثم نظر إلى وأردف « لو أنك استطعت الآن

ألا تحركي رأسك فسامنحك قبلة! » فحاولت وصاح فرحاً « هاككها يا عزيزتي أن رأسك البديع يشبه رأس (جاليتيا) التي عشت معها في القصة وأنا أتصفحها . لقد كان (بيجمايون) أحق حين طلب إلى الآلهة أن تمنح تمثاله البديع الحياة ، وتجعل من هذه الصخرة الجميلة التي لا تضر أحداً والعاقل من العقل الباطن مخاوقة من دم ولحم تشمل الفيرة بين أرجاء هذا البيت الهاديء ، وما كان أغناه عن أن يستبدل النعيم بالشقاء ! .. »

« سارت السيارة تنهب الأرض وكنت معه كالطفلة أمثل دور التمثال أكثر من مرة لأفوز منه بالقبيل ، وكنت جد سعيدة بهذا التمثيل فقد أطرائني وتماتني وأخيراً وصلنا إلى حيث يسكن وفتح الباب وجلسنا إلى مائدة في الردهة وأحضر زجاجة نبيذ مجرى وطفقنا نشرب وندخن ثم غاب قليلاً وعاد يحمل عدة تماثيل صغيرة تجلي فيها آيات الفن وقد كتب على كل تمثال تاريخاً فسألته عن هذا فقال « أنه تاريخ الزواج وأنا لا أتزوج التمثال إلا ليلة واحدة ؛ وأنت يا عزيزتي ستكونين في هذه الليلة التمثال التاسع في هذه السنة . لا يحضر زواجنا قسيس وتجلسين أنت في هذه الردهة وسأكون أنا في هذه الغرفة وسأغلق الباب بيننا وأطل عليك من شراعة الباب الزجاجية أبعث إلى التمثال التاسع الحى بالقبيل ثم تنصرفين بعد ذلك إلى بيتك ! »

« لم أحاول أن أقاوم هذه الرغبة وبقيت في مكاني جامدة وأغلق

الباب ورأيت ويا لهول ما رأيت : رأساً مشعثاً ووجهاً احتبس فيه الدم وعينين جاحظتين وها يفتح ويطبق ! ولم يلبث هذا المشهد المؤلم طويلاً فقد سمعت صوت جسم يهوى إلى الأرض ، فلم أقو على المسكت في هذه الردهة ، وهرولت مسرعة أتعثر إلى أن اهتديت إلى الباب وخرجت من هذا الجحيم وأنا لا أكاد أصدق ما رأته عيناى حتى بلغت منزلى ! لم أم ايلتى وها أنت ترانى متعبة وفى حاجة إلى نوم عميق وهيهات أن يجد النوم سبيله إلى رأس ازدحمت فيه الوسوس ! وأنى لى يا عزيزى أن أنسى ذكريات الأمس القريب ! وأنا لم أفهم شيئاً أكثر من أنى لبثت فى تلك الردهة كالتمثال الجامد وخرجت بعد أن سمعت صوت جسم يرتطم بالأرض وما عساي أدرك من هذا النوع الجديد من الزواج ! وهأنذا التمثال التاسع الذى تزوجه الأستاذ أمس وهأنذا أعجب بهذا الزواج الذى ينتهى بالطلاق بعد ساعات وأن آسف على شىء فلأنى لم أحاول أن أكشف سر هذا الزواج العجيب ولكن الباب كان مقفلاً ؛ وأقسم لك يا صديقى أننى كنت أقتحم الباب لو أنه كان مفتوحاً لكشف هذا السر ! »

ودعت هذه الزميلة وأنا لا أكاد أصدق ما سمعته منها عن أستاذى العظيم وقلت لنفسى أقنعها وأعال هذه الظاهرة العجيبة ، لعل المسكين عانى فى طفولته كثيراً من الشقاء ، ولعله كان يجد فيما يهدى إليه من اللعب والتمثيل سلوى ، فشب محبها ! أو لعله عانى غير ما حدثت به نفسى الحائرة !

مرت أسابيع أربعة على هذا الحادث — زواج التمثال التاسع وقد
روعت الجامعة بخبر هز أرجاءها وهز أفئدتنا معه . فقد وجد الأستاذ
العظيم مشنوقاً في غرفته وأمامه التمثال الثالث عشر وقابلت صديقتي
الجزيرية وقالت لها « لقد حل الغز فصاحباك من هذا النوع الذي يبحث
عن اللذة في العذاب وكان عليه أن يقطع الحبل قبل أن يأخذ بخناقه
تماماً كما كان يفعل مع تماثيله السابقة . ولقد لقي المسكين حتفه وهو
يتزوج التمثال الذي يحل العدد المشنوم . وقد قرأت فيما بعد أن أحد
المشنوقين انقطع عنه الحبل وراح في غيبوبة أفاق منها بعد برهة وراح
يقلب ناظره فيما حوله حائقاً وصاح في صوت مختنق « ما كنت أود
أن أستفيق من هذا الحلم اللذيد ! وامل المسكين مشى إلى المشنقة للمرة
الثانية بقدم ثابتة ونفسه لا تعرف الخوف ليكمل ما انقطع من حلمه
اللذيد . وها قد رأيت يا عزيزتي أن الإنسان عند ما يأوى إلى غرفته
فإنه وحده يعلم إن كان وراء هذا الباب الموصد ملاك أو شيطان ! »

فرخة توت

اشتد النقاش حول ذلك الرجل الذي أسلم مقاليد أموره لزوجته
العاتية ، فعاش معها يحمل قلب امرأة وعاطفة امرأة ، واحتمل في صبر
وجلد ظلم زوجته وقسوتها . وبلغ به الضعف والخنوع حداً جعله يفض
الطرف عن نزوات هذه الزوج ، فكان يتقبل تحت سقف بيته عاشقاً
أو خليلاً ، وهو في بحيرة من الغيرة أو ما يشبه الغيرة ، أو حتى ما يحرك
فيه داعي الرجولة . . .

ماتت عنه تلك المرأة الطاغية ، ولكنّه حزن لفقدائها وظل يغير
المؤنثات من بعدها . ولما لم يوفق إلى مثل هذه المرأة مرة أخرى أخذ عليه
اليأس سبيله ، ورأى في الموت خلاصاً من حياته الوداعة الجديدة في ظل
زوجة طيبة القلب تحبوه بعظفها ، فعمد إلى قتل نفسه ليلاحق بشريكته
الجبارة !!!

احتدم الجدل حول موضوع هذا الرجل وهذه المرأة وكنا في حجرة
المطالعة في نادي الجامعيين ، وكان بيننا الرجل الأعزب الكهل والشاب
المتزوج الرزين والرجل الطفل المدلل . . . صور من الرجال اكتملت
فيها الرجولة الصحيحة ، وصور أخرى من أنوثة النساء لولا أرديتهم
لحسبتهم من الغايات ! وتضاربت الآراء حول تفسير أسباب هذا
الشدوذ في العلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فذهب بعضهم إلى
القول بأن هذا الشدوذ كثيراً ما ينشأ عن علل نفسية . واستشهد أحد

المتحدثين بحالة البنت التي قد تنشأ مثلاً في أسرة فتجد أباهما لا يحجم عن دوام النيل من أمها ، وتهذيبها لأنفه الأسباب بالحق وبالباطل ، وترى أمها في هذا الجو الخانق تعسة مظلومة ؛ فمثل هذه البنت تشب وقد انطوت نفسها على كراهية الرجل والرغبة في التشكيل به . . . وذهب آخرون إلى أن هذا الشذوذ قد يرجع إلى خلل في الجهاز التناسلي يفقد الرجل بعض صفات الرجولة مثل حب السيطرة والسيادة ، ويصبح وهو في أشد الحاجة إلى مخلوق يحميه ؛ كما تنعدم في المرأة صفة الضعف والاستكانة ويقوى فيها الميل إلى السيطرة والعناد . . .

وتكلم غير مؤلأ وأولئك كثيرون . . . فعرضوا الآراء المتباينة حتى سادت المكان جليلة صاحبة ، فأثرت مبارحة النادي متخذاً سبيل إلى منزلي ، وقد ازدحمت رأسي بشتى الأفكار والصور ، وما لبثت هذه الصور أن تركزت في رجل يدعى (يا قوت أفندي) .

كان الرجل ضئيل الجسم قصير القامة ضيق الكتفين ، يتدلى منهما ذراعان قصيران في فتور حتى لتحسبهما مفعولين من كتفه لولا صلبة صغيرة ، وعلى أنفه منظار يهتز ويتدحرج ويكاد يسقط فيرده بأصابعه الناعمة في فتور ولين ، وكان إذ يجتاز الطريق يمشي وثيداً وقد اعتراه الخوف دون ما سبب دون أن يمنعه خوفه هذا من أن يمحو الطرقات المزدحمة والشوارع المأهولة حتى أصبحت شخصيته معروفة تلفت إليها الأنظار . . . ارتسمت في مخيلتي صورة ذلك الرجل وأنا أقطع الطريق بين النادي والمنزل — وما أن بلغت الدار حتى رأيت نفسي وجهاً لوجه أمام جاري

(يا قوت أفندي) ، وكان لا يزال يلبس الحداد على زوجته الراحلة .
وتبادلنا بعض كلمات — كمادته في كل مقابلة — ثم طفق هذه المرة
يتحدث والسمع يتهمل من عينيه على زوجته يمدد مناقبها ويطري
أخلاقها وفضلها عليه وبرها به . وراح يقول في صوت متهدج « مسكينة
هذه الزوجة . . . قد ظلمها الناس وتجنوا عليها ! تصور يا صديق أن
جاءني مرة خطاب غفل من الإمضاء ينهني فيه كاتبه الحقيير أن زوجتي
كثيراً ما تتردد على منزل يتلاقى فيه العشاق ! وذهبت إلى المنزل
المدون بالخطاب ظناً مني أني سأفاجئ زوجتي بين أحضان عشيق
وكان أن ظهرت لي الحقيقة . . . أتعرف ماذا وجدت ؟؟؟ » ثم سكت
هنيئة وأردف على الفور « إنه كان منزل خياطة ملاسها قد أقيم فيه
حفل قيل لي إنه عيد ميلاد إحدى الطائرات . . . كانت زوجتي تلهو
وتعبث مع العاشقين ولم تكن الزوجة الوحيدة في هذا الحفل ، فقد كان
هنالك زوجات كثيرات ورجال كثيرون كلهم من عليمة القوم أثرياء . ولم
يكن فيهم زوج شرعي سابقه الصدف الطيبة سوى ؛ واصل زوجتي لم
تخبرني بذلك من قبل لعلمها أني رجل من طراز قديم . ورغم أني لم
أكن مدعوأ إلى هذا الحفل فأنتي كنت مسروراً كل السرور . فقد كان
الشراب ممتعا والأكل شهيا ونعمت بأطيب الأوقات بين هذه الوجوه
الغريبة على !! اكم تمنيت لو عرفت عنوان ذلك الرجل الذي أرسل
الخطاب لأرد عليه الرد المقتنع وأعلمه درساً فلا يعود يندد برباته
الخدور !! وغير ذلك كثير يا عزيزي — رحمها الله — كانت طيبة

القلب مظلومة دائماً ! » استعدت إلى ياقوت أفندي وأنا مشدوه وقد
انفقد لساني فلم أقاطعه طوال الحديث . ولما أحس منى هذا الجود وهذا
الصمت هزني وحمق في وجهي وقال « ألا تقول شيئاً؟ » وتركتني ومضى
وصعدت إلى منزلي وجعلت أفكر في أمر هذا الرجل الذي اشتهر
بين الناس باسم (شرابة خرج) ولم يحاول من بجانبه أن يغير هذا الاسم
أو يدافع عن نفسه عندما يبعثه به أحد من الناس . . .
لم أعرف (ياقوت أفندي) هذا إلا من سنتين ، يوم أن
سكن في الشقة المجاورة في المنزل الذي أقطن فيه ، وكان علينا أن نقوم
بواجب الزيارة والترحيب بهذا الجار الجديد ، فقصدت إليه مع زوجتي
وما دخلنا غرفة الجلوس وانتظرنا حتى حضرت ربة الدار بعد قليل
واستقبلتنا في ترحاب ، وأخذنا نحن الثلاثة نتجاذب أطراف الحديث
في غير تكلف كأننا أصدقاء قداماء ، فقد كانت السيدة محدثة بارعة وقد
بدأ وجهها جميلاً حقاً رغم ما كان يبدو على حياها من قسوة وعناد —
وبينما نحن نستمع إلى حديثها الممتع إذ بياقوت أفندي يطلع علينا وهو
يقدم رجلاً ويؤخر أخرى وبعد أن حيانا هرول مسرعاً وأخذ مكانه
في آخر القاعة . ولم يكن دخول ياقوت أفندي على هذا النحو مما يدفع
الزوجة إلى قطع حديثها ، وكان كل ما بدر منها أن ألقت عليه نظرة
فاترة ومضت في الحديث دون أن تتركنا نستشعر بوجوده . وظلت
السيدة تنقل بنا من حديث إلى حديث دون سأم ، والرجل قابع في
مكانه لا يفارقه إلا عندما يصدر إليه من زوجته أمر بأن يتعجل الشئ

أو القهوة أو تبعت به رسولا لاستطلاع سبب جلبه بين الخدم أو أفراد الأسرة ، ثم يعود بعد انتهاء ما أمر به وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويأخذ مكانه في آخر القاعة !!

لم نتبادل زيارة واحدة بعد هذه الزيارة فإن ما خبرناه بعد ذلك فاق كل ما رأيناه من علاقة غريبة بين الرجل وزوجته في زيارتنا تلك فكثيرا ما سمعنا لطمات وصراخا ألما أفرغنا حتى إذا ما تبينا الأمر عرفنا فيه لطمة الزوجة وعويل ياقوت أفندي .

وكثيراً ما رأينا هذه الزوجة تفتح الباب بقوة ونسمع في منتصف الليل جسماً ضعيفاً يلتقي على درجات السلم وتقل الباب بشدة . ثم يعود صوت ياقوت أفندي انخافت يسترحم ويدق المسكين الباب دقا خفيفا وقلما يفوز بالدخول شاهدنا كل هذا وروعنا له وأصبح حديث الرجل على الأفواه . فمن قائل إنه يمسح البلاط ويعني بشئون المطبخ ومن قائل إنه قعيد في المنزل لا يفارقه إلا بأذن زوجته بينما هي حرة طليقة ليس له عليها من سلطان !!

وإني لأذكر أن ياقوت أفندي زارني مرة قبيل وفاة زوجته ليعتذر عما تسببه هذه الزوجة من جلبه وصخب لجيرانها في ساعات متأخرة من الليل وهي تنتهره وتكيل له السباب وقد تشبهه ضرباً ولكما . وكان الرجل يتحدث عن كل هذا في شيء من البساطة ثم يقول في مرارة : « أنها عصبية ياسيدي ، ولست أنكر أنني شرابة خرج وقد سمعت ذلك مراراً من الناس وحتى من بناتي !! » ثم توقف هنيهة وعاد ياقوت

أضدى يقول « حدث منذ شهر وأنا أهم بدخول إحدى المقاهي أن سمعت
بعض أصدقائي يتهامون فيما بينهم ورنيت في أذني الكلمة المشثومة
(شرابة خرج) ثم أمسكوا عن الكلام . ولعلهم استشعروا خجلاً عندما
طلعت عليهم ولكني بدأتهم بالتحية وجلست إليهم واملهم حاولوا أن
يعتذروا ولكني لم أمكنهم من ذلك ، فقد طرقت وإياهم موضوعات
عديدة ثم قمت وودعتهم وخرجت . . وبعد أسبوع من هذه المقابلة
زرت أحد هؤلاء الأصدقاء في بيته وأراد أن يعتذر لي فقد حسب أنني
إنما حضرت لأعيب عليه ، ولكني لم أدعه يعتذر وقلت له : « لست
أنكر يا صديقي هذا الضيف من جانبي ؛ ولست ألومك أو ألوم غيرك
من الناس ولكني أطلب إليك في شيء من الرجاء أن ترشدني إلى
ما أدفع به هذا الضيف واستعيد به هذه الرجولة التي فقدتها ! » فطليب
خاطري وهدأ من روعى وقال لي : « أن أمرك يا صاح هين ميسور —
فما عليك إلا أن تتكاف مظهر الرجل الشديد المرامس وتأخذ كل شيء
بالشددة وإياك أن تتراجع عن أمر أصدرته ولو أدى إلى فراق بينك وبين
زوجك ! » ظل هذا الصديق يوحى إلى بكل ما يعرف ويضرب المائدة
بقبضة يده في قوة حتى خلت نفسي أمام شمشون الجبار . وفجأة فتح
الباب ودخلت منه امرأة في وجهها قسوة بالغة وقالت لصديقي الواعظ
الشجاع في خشونه وقد ارتجف خوفاً « لم كل هذه الجلبة وهذا اللغط
يا شرابة الخرج ؟ !؟ ما حسبتك خطيباً بارعاً إلى هذا الحد ! وأمطرته
وابلا من السباب والشتم وأشاحت بوجهها عن هذا البطل وجدجتني

بنظرة قاحصة أشعرتني كأنني أمام امرأتى . . . وخرجت هذه المرأة
وهزلت أنا مسرعاً وكنت أحسب أنى وحدى هذه الشراية . . .
كان ذلك شأن ياقوت أفندى قبل أن يفجع فى زوجته فلما منى
بفقدتها ظن بعض صحبه أنهم ملاقوه على أحسن حال بعد أن استعاد
حريته المفقودة ! وسكن خاب ظنهم عند ما وجدوه يبكي بكاء الأطفال
نادياً سروراً طالماً . . . ويهذى كالمحموم وقد جل الخطب وعظمت البلى
فأيقنوا أن الرجل لا بد لاحق بزوجه عما قريب . ولكن مرت
الأيام فاذا الرجل قد تغير وتبدل وعاد إليه مرحة . وإذا هو يفتح معارفه
بأنه مستزم الزواج ليسرى عن نفسه فى حياته الجديدة . وقد تزوج
الرجل فعلاً ولا حظ أهل العارة سكوناً شاملاً يحيم على مسكن ياقوت
أفندى بعد زواجه فحمدوا الله على هذا الهدوء الذى لم يعرفوه منذ حل
ياقوت أفندى فى هذه العارة . . .

وحدث ذات يوم أن فتح باب شقة ياقوت أفندى وكان هو هدم
المرءة الذى فتح الباب ، وكان عصيباً على غير عادته . وقد ظهرت بمدخل
المسكن زوجته تذرف الدمع السخين ، والرجل يأمرها أن تبرح مسكنه
إلى غير رجعة ، ثم أغلق الباب ، وهبطت المسكينة السلم وبارعت الدار ،
و بعد فترة من الزمن تزوج ياقوت أفندى . ولكن هذه الزيجة .
نشلت كسابقتها .

وأخيراً ظفر الرجل بشريكة سليطة وعدنا من جديد نسمع
اللطمات والمويل وعاد صوت الباب بين الآونة والأخرى يسمع دواياً

إذ يفتح ، فيلفظ جسر ياقوت أفندي خارجه ، ويفلق بعنف وتندة ،
ويعقبه صراخ المسكين ، ثم يتبع ذلك فترة من السكون العميق ، ثم نسمع
طرقات خفيفة على باب المسكن كأنه يستجدي فتحة راجياً الدخول .

وها قد مرت خمس سنوات على هذا الزواج الأخير الذى وصفه
لسان طويل بأنه سعيد وسعيد جداً !!! وهكذا أستعرض مراحل حياته
الزوجية وأستعرض كذلك ما قيل بنادى الجامعيين . ولا أستطيع أن
أربط تماماً ما بين هذه الصور المختلفة وهذه الآراء المتضاربة . على أن
المقطوع بصحته أن ليس هناك رجولة مطلقة فى الرجل ، ولا أنوثة مطلقة
فى المرأة ، لأن هذا وتلك يسلكان طريقهما فى الحياة وفى نفس كل
منهما بعض صفات الجنس الآخر ، حتى إذا ما زادت هذه الصفات
غير الخاصة بأحد الجنسين لسبب نعرفه أو لا نعرفه ، كان ذلك شذوذاً
واضحاً فى الطباع قد يؤدي إلى هدم كيان الأسرة . والويل كل الويل
للأسرة التى منيت برجل زادت فيه صفات الضعف والخنوع والامتسالم
التي هى من مميزات المرأة عادة ما دامت الطبيعة قد وضعت الرجل أصلاً
من الأسرة فى مكان ربها الأول والأخير .

بقى لى — بعد هذا — أن أتساءل كيف ارتضى ياقوت أفندي

لنفسه هذه الحياة التعمسة فى ظل زوجة متمردة عريضة ؟ ولم يحاول من
جانبه التخلص منها مهما واثته الفرصة لتحقيق ذلك ! . . . الواقع أن
المسكين لم يرتض لنفسه هذه الحياة ، وإنما أرغم على قبولها إرغاماً
وسيق إليها قسراً تحت تأثير عوامل خفية قد تسكون من عمل العقل

الباطن أو من أشياء أخرى ، ولو أنه أتيجت له فرصة انتقاء شريكة له من بين مئات الفتيات لما اختار من بينهن عند أول نظرة إلا أشدهن مشاكسة وأكثرهن عناداً ، فلو أنها استجابت له لسرعان ما يتزوجها ويتفالك عليها ، ويتفانى في حبها ، وتكون هي من الذكاء بحيث نلمس منه هذه العاطفة الجامحة فتزيد من دلتها عليه وتبخل على هذا المحب الوامق بفرامها ، وتعطيه من هواها بمقدار ، والرجل قانع بكل هذا وراض . وهكذا يتم لها الظفر فلا يستطيع ياقوت أفندي أن يفك إيساره ، وما أقسى الحب الشهواني من جانب واحد إذا ما استغله الجانب الآخر لبعثه وطموه ، وبملاشك فيه أن ياقوت أفندي من هذا الصنف الذي يجرد من العذاب سلوى ويلذ له أن يشكو وقد يشور أحياناً على أن يساوده الهدوء عند ما تمكن به هذه الزوج الطاغية ، فهو من هذه الناحية يعاني هذا الشدوذ النفسى الذى يأخذ على المرء مشاعره ويفقد وضعية لهذا النوع من الحب المريض .

ولا يهولنكم أيها الذكور من بنى الأنسان ما عرفتموه من أمر ياقوت أفندي فان فى عالم الحيوان عجباً وفى الطبيعة ما هو شر من هذه المرأة التى سامت زوجها سوء العذاب وما هو أتعس من ياقوت أفندي ، وقد أدركتم ما فى عيشه من شدوذ ! ولتعلموا أن أنثى العقرب مثلاً تقتل ذكرها بعد عملية التزاوج ، وكذلك تفعل العناكب والحشرة المعروفة عند العامة (بفرس النوى) وليس القتل هنا عملاً شاذاً بل هو ظاهرة عادية لا يشور لها باقى الذكور .

ولا يمكننا أن ننسب بأية حال من الأحوال إلى جميع بنات حواء
هذه الصفات المنكودة ، من تعذيب وتنكيل و بطش بأزواجهن
الوادعين كما تفعل هذه الحيوانات - فما كل أبناء آدم ياقوت أفندي
وما كل بنات حواء زوجته العاتية . . . والواقع أن هذين الشخصين
من الندرة والفرابة بحيث أصبحا حديثاً للناس ؛ والنادر عادة جذاب
يستهوئ الألسان منذ الأزل . ولقد عبر لنا فنان مصرى قديم قبل ألفى
عام عن ياقوت أفندي وأشباهه فأعمل ريشته وأخرج لنا هذه الصورة
الرمزية الفريدة . . . تلك الصورة التي رأيتها في مدينة (الآله توت)
بتونة الجبل ، ولم يحاول الدليل أن يعقب عليها حينذاك فقد كنا يومئذ
خليطاً من الفتيات والفتيان . . . هذه الصورة البسيطة التي لا تزال ألوانها
زاهية صورة الفرخة في لونها البنى الداكن وهي تتحفز للشر رافعة
جناحيتها وقد شمرت إحدى رجليها في وجه ذلك الديك الودع الواقف
أمامها في ريشة البرتقالى اللون ناظراً إليها في هدوء واستكانة !
أدركت الآن وأنا أفكر في ياقوت أفندي وزوجته أن هذه الفرخة
ما زالت تعيش بيننا وتملاً صيحاتها المنكرة أرجاء هذا العالم . وما أشقى
بنى الدنيا بفرخة توت . . . ولكن . . . في ثياب إحدى بنات حواء !!

الكلب الرخيص

كنا في دار أخت لنا نسمر على عادتنا ، حين فتح باب الغرفة التي كنا فيها وتقدم الخادم يدينا بقدم الدكتور (شفيق) الذي لم يلبث أن ظهر على أثره وأطل علينا برأسه وعاجلنا بقوله « أن كلبى معى ، فأن أنتم رخصتم له فى الدخول دخلت معه ، وأن لم تفعلوا رجعتنا أدراجنا! »

خففنا جميعاً للترحيب بالضيف الكريم الذى طالما تحرقنا شوقاً إلى لقائه لطول ما استجب عنا ، وهو المحدث اللباب والراوية الجذاب والناقد اللاذع الذى يذهب فى نقده - فى بعض الأحيان - إلى حد من الأغراق والمغالاة لا يسهل على السامع تصديقه ، وكثيراً ما يتطرف فى النقد فلا ينفى منه أحداً حتى نفسه ! وهو ولوع بالثرثرة التى طالما عابها على النساء . . وما يدريك لعله أراد - بما يحمل على المرأة منها - أن يؤثر بها نفسه وينفرد بها دون غيره . وفى الحق أن ثرثرته كانت طريفة تستساغة فيها خيرها ولها مغزاها ، كانت كلها نقداً للحياة ونظمها وأساليبها ، وكان لا يتحرز من أن يطلق لسانه بما شاء أينما كان .

ذلك كان شأن الدكتور (شفيق) الذى تستمتع به الآن نواظرننا فى جلسته بينما فى قاعة الاستقبال ، وقد أحاط السيدات والأوانس بكلبه الأرقط ورحن يداعبنه ويدلنه ويمسحن بأكفهن البضة شعره الأجرد الذى تنتشر البقع السود فى رقعتيه البيضاء . . . وأنه لكلب من نوع نادر ، وفى الحق أن جمال مظهره ليستوقف النظر وهو يوزع على الجمع

نظرات حائرة حيرة المتسائل عما حوله ، وما حاول قط أن يأرن أذنيه أو يحرك للنباح ما ضفيه .. ولكنه جعل يبصم بذنبه في حركة وادعة وانية .. وتقدمت إحدى السيدات من الدكتور تسأله « أنى لك هذا الكلب الظريف يا دكتور ؟ ومن أى أنواع الكلاب هو ؟ يخيل إلى أنك ابتغته بثمان باهظ .. أليس كذلك ؟ » فأجاب دون أن يرفع إليها طرفه « أما عن نوع هذا الكلب فإنه من ذلك النوع الشهير بحب الخيل وشدة ولعدهبها فهو يلازمها أينما تكون ولا ينفك معها في حظائرها يلعب بين قوائمها ويرفه عنها عناء ما قاست طوال يومها من جهود مضنية في القابات . وقد كلت متونها من ركض الأشراف ، وهأنذا قد جعلت من كلب الحظيرة كلب (صالون) كما يجعل أثرياء الحروب نفائس التحف ورائع التماثيل في أركان المطابخ وفي (دورات المياه) !! ثم صحت قليلا واستأنف حديثه عن الكلب الجميل النادر فقال « ولقد شريته بثمان نادر كذلك ! » وهمس في أذنها « أنه ثمن نجس على الرغم من ندرة نوعه ومن أتبع الحذر من سلالة أور ووية ! » وتقدمت إلى الدكتور آنسة ترجوه أن يتناع لها واحداً من تلك الكلاب ، فهب زائر يقول « أعفونا بارفاق من أمر هذه العجاوات ، ودعونا نستمتع بشيء جديد من أحاديث الدكتور الشائقة فنحن أشوق ما نكون إليها ! » فلم يمهل الدكتور إلى أن يتم حديثه بل قاطعه على مألوف عادته وقال « من نحو شهرين حضرت إلى عيادتي امرأة تحمل على كنفها طفلا غليلا وكان معها « عم مدبولي » الاسكاف ، وهو علم بارز في الحى الذى تعيش فيه تلك المرأة ، معروف

بين الفقراء بلقب (الحكيم) ... ومن يوم أن درجت من المهيد وأنا
أعرف هذا العم مدبولي — بحثت حال الطفل ولا أريد أن أطيل عليكم
فأخوض في موضع علم الأمراض ولكي أجتزئ بهم يفهم أنني وجدت
مريض الصغير مصاباً بالته إلى جانب ضعف الأعصاب ومحت كذلك
حال الأم وكلفتها أن تأتيني بزوجها ، فأتت به في اليوم التالي فإذا هو
فحل موفور الصحة ، فأشرت عليها بأجراء بعض التحليلات ؛ ولشد
ما استعصى على الأمر حين جاءت نتيجة تلك التحليلات سلبية ! «
طفت على المجلس موجة من اللفظ والتهامس بين الحضور ، وانفجرت
سيدة نصف أمضيا هذا الحديث فقالت « ما هذه المقدمة الجافة
يا عزيزي ؟ ! ! يخيل إلى أنك ستنتهي بنا إلى التحدث عن مواعيد
الزيارة في العيادة وعدد المرضى وما تدفع من ضرائب ! » وعقب آخر فقال
« على رسلكم ياسادة ، فقد فاتكم أن الدكتور سينتقل بكم من صحراء
قاحلة قاتلة إلى واحة ندية وارفقة ، ندعوو بربكم يتم حديثه ! » وقالت
آنسة « لقد كان جديراً به أن يواصل حديثه عن الكلاب والحديث عنها
أشهى وأمتع من حديث الأمراض والعمل ! » ثم غادرت الغرفة فتبعها كل
أفراد المجلس اللطيف ... وهنا اعتدل الدكتور شفيق في مقعده وهو
شاخص ببصره إلى الباب وقال « لقد أخرجت حواء القديمة آدم القديم
من الجنة ، ولقد انتقلت بمقدمتي هذه لآدم فأخرجت بها حواء الجديدة
من هذه الغرفة ! ؟ ؟ فهل أحق هذا أحدا منكم على يا بني آدم ؟ » ثم
أشعل لفافة تبغ وراح ينفث دخانها ويراقبه في هدوء متكلف . ثم استرسل

يقول « علام كل هذه الضجة يا أصحبابي وفيم كل هذا التبرم ؟ لقد ضقت
بأنواع الأفاضيل المائة المليئة بالفراغ الممل ، وما أخالكم تريدونني على
أن أحدثكم عن الربيع وأزهاره وحناته وأطيابه وجداوله وأسهاره ، ولا
عن العزول الماكر والحبيب الهاجر والفرار والانتحار ! فكثيراً ما سمعنا
هذه النعمة المماولة وعشنا في هذه الأجواء المزدولة . ولقد آن لنا أن نهدف
في القصة إلى لون جديد وتتوجه بها إلى غرض اجتماعي مفيد . ولكن
ما دمتم لم تبرءوا من المرض بقصص الربيع وحديث الورود والرياض
فسأحل نفسي على أن أمزج لكم في قصتي هذه شيئاً منه إذا رغبت في
أن أعياها ؟ » « تأمن الجميع على قوله ومضى هو واصلاً ما انقطع من حديثه
يقال « استمضى على داء الطفل المسكين لأنني لم أظفر من أمه البنائسة في
استيضاح تاريخ حياتها بأكثر من أنها نشأت في البيت الذي كانت أمها
تعمل فيه من قبل ؛ وأن هذه الأم قد ماتت وخلفتها وهي لم تتخط الحلقمة
الأولى من سنيتها . وحين لحظ عم مدبولي يا سى ولمس رغبتى الملحة في
الوقوف على تاريخ حياة المرأة .. وامله أدرك ما قد يكون في ذلك من
فائدة في علاج الطفل المريض ، وعد بأن يعود إلى زيارتي مرة أخرى
في فرصة عاجلة وانصرف »

« بر الرجل بما وعد وحضر » ثم بدت على شفة الدكتور شفيق
بسمه خبيثة واسترسل يقول « وكان الربيع وكانت الأزهار وكان نداء
الحنب ترجعه الأطياف في أغار يدها العذبة وراحت الفراشات تنتقل مرفرفة
من زهرة إلى زهرة وفي هذا الجو الجميل المنعش تدفق الفتيان والفتيات

على الحدائق يشاركون الطير والفراش والزهر في نداء الحب كأنما يدفعون إليه دفعا ، وهم يرفلون في حللهم الزاهية وقد علت وجوههم نضرة النعمة وشاعت في نفوسهم نشوة الفرحة ، وكانت هناك فتاة قد غمرها الجمال وأرهمها الدلال وفتنتها عراقة البيت الذي تنتمي إليه ، فكانت حيث سارت تنثر بسماتها من غير حساب على الأفواة الفاغرة المتلهفة إلى اختطافها كانت هذه الطيبة الغريرة لا تعرف عن الحب أكثر من أنه وسيلة إلى إطفاء غلة الشهوة الجامحة في مثل هذه السن الحساسة . والذي أعجب به ولا أعرفه ، هو من أين انحدرت إليها هذه الماطفة الجارفة إذ كانت ترى في كل ما حولها حبيبا ما دام يبادلها حبا بحب وتقربا بقرب . ولم تجد في الجمع عازلا واحدا فأنها لم تدع أحدا إلا أرضته وحاول أهلها كبحها بكل الوسائل فما أجدت وسيلة ، ولا نجحت في فتاتهم حيلة . وكانت هذه المياة الشاردة واسمها (توتو) كالزهره التي تفتحت عنها أكمامها لتستقبل الحب من كل ما عدلها من الزهور ولعلها غالبت هذه الماطفة ولكنها غلبتها . . . كانت توتو وأترابها يذرعن الحدائق جيئة وذهابا وكان ينبعث من عينيها بريق فاحص ثم لا يلبث أن يقع بصرها على شاب وسيم أو دميم ، غوى أو تقي ، حتى ترسل النظرات وتتجاوب البسمات وما هي إلا إشارة والتفاتة تنقل بعدها عن سربها إلى معزل تنفرد فيه مع أحدا حبا بها . وكذلك يكون شأن غيرها ؛ وتتعدد المناورات وتشكر المداورات كلما لاح لإحداهن صيد . وقد أطلق على توتو اسم (توتو الباشا) تشبها بكلية (لولو) لأحد الباشوات كانت في تلك الحديقة إذا سارت

سار في أثرها جمع غفير من الكلاب يحاول كل أن يظفر منها بحب الربيع . انتهى الأمر بتوتو إلى مثل ما انتهى بالزهور وبالطيور وبكلبة الباشا ... إلى بذور وأفراخ وأجراء . . . انتهى بمولود خرج إلى الوجود وليس يعيننا ذكراً كان أم أنثى ، ولكن المهم أنه لم يكذب يتنسم نسيم الحياة حتى أخذ في لفائفه إلى أبواب المساجد أو الكنائس والتقطه بضع السيارة فضموه إلى أضرابه في أحد الملاحي .

انتهى هذا الربيع وجاء بعده ثان وثالث ، وفي كل عام تستقبل هذه الملاحيء تلك الهدايا اللقيطة أو الضحايا البريئة التي تمدها بها أمثال نوتو وغيرها .

لم تكن هذه التوتو من نسيج خيال عم مدبولي ، فهو رجل لا يعرف هذه السلع التي خلقت من غير طبيئته ونشأت على غير شاكلته ، ولكنني سمعت لكم هذا الحديث لمئاته لما قصه على عم مدبولي ، فقد حدثني هذا الكهل الطيب القلب عن خادم كانت تعمل عند إحدى الأسر وكانت تشبه توتو في جموح العاطفة ، كانت متهاككة لا ترفض حب أحد من الناس ما دام في ذلك شبع لنهمها الحيواني ، وكم نصيح لها النصاح فلم تلق إليهم بالا لأن عاطفتها الفائرة كانت أقوى من كل نصيحة وقد أطلق عليها في الحي اسم (كلبة عم امام) . ، ، وكلبة (عم امام) هذه كمانت من الصنف البلدي الرخيص الذي لا يسلم من القذف بالحصى ومن اللكز والضرب ولكنها كانت -- مع ذلك -- تتمتع مثل (لولو الباشا) بعدد وفير من كلابها البلدية تجرى في أعقابها لتظفر منها بنداء

الحب . وهذه العاطفة ليست وقفاً على الكلاب المدللة ، واسكنها مشاع
بين طبقات الكلاب كما كانت مشاعاً بين توتو الواسنة الثراء العريضة
الجاه و (خشرة) الخادم الرقيقة الحال الوضيعة النسب !!

لم يتحدث عم (مدبولي) عن الربيع والزهر والفراش ولم يحاول أن
يغالي حديثه بهذا الطلاء الخلاب كما صنمت معكم لأرضي رغبتكم في
سماع قصة شائقة . أما الرجل فلم يقصد إلى ذلك ولكن قصد إلى
الحقيقة المجردة فجرى لسانه بوجع الطبيعة وسذاجتها فقال إنه لا يفهم
كيف سقطت هذه النشأة إلى هذه الماوية، وكيف جعلت أحببها في أنفسها
فلم تكثرت لأحاديث الناس عنها وتنديدهم بفساد خلقها ! ولكن لعلها
كانت مسروقة إلى كل هذا بعوامل خفية لم يكن في طوقها أن تدافعها .
انتهى الأمر بها إلى مثل ما انتهى بتوتو وباعت بذلك الثمرة المعروفة
فتمخضت عن طيلة أشقت الأسرة التي كانت تصل يدهم أن يخرجوها
بها ورأوا من الإنسانية أن يقروا عليها قرب هذه الطامة في كنفهم
وكذلك نمت هذه الطامة البويضة في هذه الجنة العريضة وترعرعت تحت
ظلالها . وفي إحدى الليالي جاءت خضرة إلى عم مدبولي تسر إليه أن
البنائة قد تكثرت وأن أحشاءها تنطوي على جبين جديد ، وأنها
تخشى ألا تغفر لها خطيئتها هذه المرة إذا اتضح السر فتطرد شرطردة .
وأعملت رأيها على أن تخشى ، فغربت عن الحى شهراً أو نحوه ، ثم عادت
بعده إلى عم مدبولي تسر إليه ثانية أنها وضعت مواوداً وألقته على عتبة
باب أحد المساجد وراحت ترقبه عن بعد حتى عرفت أنه قد نقل إلى

أحد الملاجيء وسجل باسم وتاريخ عرفتتهما . . . ويقول عم مندبولى « ثم ماتت هذه الخادم فكنت أرعى ابنتها وأعطف عليها . ومن عجب الأمور أن هذه الابنة لم ترث خلق أمها ، ولم تشب على ما شئت عليه ، بل كانت تتحلى بخلق كريم وعفة ينذر أن توجد بين فتيات طبقتها . وكبرت الفتاة وتلألأت نضارتها وكانت على جانب موفور من الملاحظة فحاول عدة من الشياطين إيقاعها في حبالات غرامهم فلم يفلح منهم أحد ، لأن هم الفتاة كان محصوراً في الظفر بزواج لا بخليل . . . وفي ليلة ما جاءت تدعونى لأن أكون أحد شهود زفافها في هذه الليلة ، فما أن ذهبت ورأيت العريس وعرفت اسمه حتى اقتربت منه وجعلت أتفرس في مفاطح وجهه فإذا هو بصور لى خضرة الأم الراحلة . فداخلتى ريبة ولكنى لم أشأ أن أقلب هذا العرس مآتماً ، واعتصمت بالصمت ثم اعتذرت لمرض فجائى وغادرت البيت لأفر من الشهادة على أمر حرمه الله ، ولو أنى لم أقطع بصحة ماخامرنى من الشك ولم أبح بشيء مما رابى من أمر الفتى إلى أحد ، ولم أحاول أكشف سره لأحد ...

ثم الزواج دون أن أشهده . فان تكن شكوكى صادقة فيها هى لعنة الله قد صبت على هذا الزواج المحرم ! »

وواصل الدكتور شفيق الحديث فقال « خرج عم مندبولى بعد أن عرفت منه اسم الزوج وسنه واتصلت بالملاجء لأتم بحتى ، فكنت موفقاً بجد التوفيق ، فقد صدقت شكوك هذا الرجل الطيب وتحققت مزاعمه ، ويجدر بى فى هذه المناسبة أن أكشف لكم عن سر ضعف النسل فى

كثير من الحالات وتعرضه للعلل الجسمية والخلقية وغيرها — فكلنا نعلم أنه في بداية الخلق وفي العصور الأولى لم يكن هناك حرج في أن يتزوج المحارم ، فيتزوج الشاب أخته أو عمته أو خالته ولم يثوبه إلى الصلة القريبة الكامنة في الدم وإلى تأثير النسل بهذه العلاقة وظهور بعض الصفات الشاذة التي تنجم من هذا الاختلاط .

وقد دلت البحوث المستفيضة التي قام بها علماء الوراثة ودعموها بالأدلة والأسانيد على صدق هذه النظرية ، فأن علاقة الدم إذا قرب بين الأبوين كثيراً ما ينتج نسلاً ضعيفاً فيه استعداد للأمراض وظهور العيوب الخلقية والانحطاط العام في درجة التناسل بل وإلى العقم في الأجيال التالية . . . أما إذا بعدت هذه العلاقة فأن هذا النسل الخليط يكون في الغالب قوياً يفوق أبويه في كثير من الصفات كالمناعة ضد الأمراض والقدرة على مقاومتها وسرعة النمو وقلة الوفيات .

وقد سجلت مراجع التاريخ أن بعض الأسر المالكة من قدماء المصريين كانت تجرى على تزويج الأخوة من أخواتهم فأدى ذلك إلى انقراض هذه الأسر . «

خيم السكون على جو الغرفة وساد صمت رهيب وبدت على الوجوه علامة الدهش إلى أن انفجر صوت الدكتور شفيق مرة أخرى وهو يقول « هكذا يا سادة يكبر ابن توتو أو ابنتها ويتعرع ابن خضرة أو ابنتها ثم تغادر هذه المخلوقات البريئة دور اللاجئيين — دور الشفقة — دور الطفولة المشردة — أو تخرج من كنف الأسر الكريمة التي آوتها

وتنتشر في الأرض تبغى من فضل الله وتسكح في طلب الرزق وقد
يجمع بينها الطواف، وهي لا تدري من أمر ماضيها قليلا أو كثيرا . وقد
تتجارب المواطف فيتزوج الأخ من أخته وهو برىء ، والأب من ابنته
وهو برىء والابن من أمه وهو برىء ، ويخرجون للعالم أنصاف مخلوقات
ضميلة مريضة لا تصلح للنضال في الحياة والكفاح فيها ! »

« وها هو ذا كلبى الجميل الذى انزع إعجابكم سيدات ورجالا ، لم
أحصل عليه بالثمن البخس إلا لأنه كان ضحية من ضحايا الزواج القريب
فقد كان من عادة صاحبه الذى يتعجر فى الكلاب أن يدخل فى كل عام
على كلابه دما جديداً فيستقدم تلك ذكراً جديداً من أوربا واشتعلت
نار الحرب وانتعج الاستيراد فزهد إلى التجديد الذى تعوده سبيلا !
فكان لا بد له من أن يشرك كلابه بالتلقيح القريب ، فلم تلبث أن
ظهرت فيها أفراد من لا تسع فأرغم على قبول الأمان البهيمية فيها ،
والذى لا شك فيه أن علة الصمم كانت كامنة فى هذه الكلاب وساعد
على كونها تجديد الدم الذى كان يقوى به نسلا كل عام ، فلما انتطع
هذا التجديد واستمر الزواج بين الكلاب الأقارب لم يقو النسل الجديد
على مقاومة العلة فطفت وظهرت .

ولقد أدركتم سر رخص كلبى وإنى وأن ارتضيت أن اشتريه بهذا
الثن البخس إلا أنى أقسم لكم أنى لا أرتضى أن أشتري بليم واحد
هذا الطفل المريض الذى أعجزنى علاجه ولا أستطيع أن أسميه مثلا
« الطفل الرخيص » لأنه لا يباع ولا يفيد منه الناس شيئا ! »

نخيم السكون على المسكان مرة أخرى وعملت الوجوه كآبة وأسى .
ولعله طاف بكل رأس شيء من ذكريات الماضي وأن الملاهيء ودور
الشوارد قد تكون قد ظفرت منهم بشيء من مخلوقاتها البريئة ، وأنها
سوف تخرجهم يوماً إلى الأنسانية أنصاف مخلوقات مريضة ا

قطع الدكتور هذا الصمت أخيراً وقال « فيه ياسادة ... ألم يأن أن
نهدف بالقصة كما قلت لكم إلى توجيه اجتماعي مفيد ونترك الربيع
والورود والرياحين والبرال والمنتحرين .. ولو إلى حين ! »

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتي في مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل ، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لأهو بعض الوقت ، وحتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها في غرفتي بين الكتب . ولم يكن يعتريني من كل هذا ملل أو سأم ، فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة في مصر ، وتعددت حياة الجسد ، ولم أكن لأغيرها بعد بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفي في كل مراحل حياة الدراسة . وكان أبي - رحمه الله - يفخر بي ويشجني على هذا ، ويصرفني بشتى المغريات وصنوف الحيل عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية . وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالقني ، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة . وفي يوم الأحد التالي لانقضاء هذين الشهرين كنت جالسا في الغرفة أطالع كعادتي ، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن في الدخول ، وفقت لاستقبالها ؛ ودخلت وقالت لي وفي صوتها رنة العطف - وفي الحق أن هذه المرأة كانت لي في هذه القرية أمًا مؤنسة :

« إنك يامستر ريدي غريب الأطوار ! إن أهالي ليدز في مثل هذا المهم يغادرون المدينة فتمانا وفتيات ، أزواجا وزوجات ومعهم أطفالهم

إلى الريف الجميل يستمتعون بمناظره الخلابة . وإني لأعجب أن يقبع
شاب في مثل سنك في غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى ؛
وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج في مثل
هذا اليوم لتجدد نشاطك ! وقد تأملت لك وفكرت طويلاً فيما قد تؤول
إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده . وها أنت ذا ترى
منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب
يا عزيزي أن تقرن الجد بشيء من اللهو البريء . ومم يسعدني أن يكون
إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحداثق أيام الآحاد والأعياد .
وإني موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ...
فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة
وحينئذ تفتش بين طيات الماضي عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف
تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ، لأنك لا تستطيع إلا أن تذكرها . وإنه
ليسعدني أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلي يوم الأحد القادم
بعض الفتيات والفتيان - ومن بينهم فتاة من أسرة في الريف كنت أسكن
إلى جوارهم قبل نزوحى إلى المدينة - وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها
جميلة وعلى شيء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فإن رغبت في
هذا فسا كتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة
الأحد . وإني إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً
من السرور ، فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو
هذه الضيفة الكريمة ؟ »

ثم أمسكت . وفكرت من جانبي فيما قالت ، وتذكرت أبي وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذي يصل إليه بنهاره بين الكتب ، وتذكرت كذلك أن النجاح كان حليفي في هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاحظ لي في هذه الأونة خيالي في المرأة ، فرأيت منظارى السميالك وجسمي الهزيل ، وفي حركة عضوية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامي يشع من عينيها بريق فيمة رحمة وفيه عطف كثير :

« إني راضى ياسيدي عن كل ما تقترحين ، وإني لك لشاكر ! »
وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمت مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضى به الأيام ، وخرجت أصحاب الفتاة ، وركبت وإياها قطار الضواحي ، وتجادنا كثيراً في رحلتنا القصيرة ، فسألته عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومصر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طلبت إلى في أدب جهم وفي شيء من الاعتذار ألا أعجبها إلى منزلها ، لأنها لا تود أن تظهر مع غريب في طرق القرية الصغيرة ، وهي تخشى أن يؤدي ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلو كها السنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجي بعد أن ودعتها في المحطة

نمت ليلتي نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلاً في تلك الفتاة الفاتنة ، فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألته :

« كيف حالك الآن يا مستر ريدي ؟ »

ثم أردفت :

« هل لك في أن أدعرك صاحبتك مرة أخرى لتمضي عطلة آخر
الأسبوع عندنا؟ »

فأجبتها على الفور أجزل لما الشكر وأقول لها أهلي بركات. وادعها
كل أحد ! وأنحيت وخرجت وهي تشيخي بفطرات الأم الطوف ،
ولكن في شيء من الخبث .

وحضرت نورا ، وكنت أخرج معها للنزهة في الرياض ، واشتركت
معها في أندية رياضية عدة ، واسكن ذلك كله لم يشغلي عن الدرس
والتحصيل ، وحدثت الله على ما آتت إليه حالي ، فقد زال عني الهزال
والضعف .

تعددت زيارات نورا لمنازلنا ، وتوثقت بيني وبينها صلوات الود .
وعند عودتي ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلني بالباب
لتقول لي إن والد نورا في غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلة ،
فدخلت غرفتي وأنا أفكر فيما يقبطني به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى
الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم تقدمه إلى ابنته ، وقد حضرت على
ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذي حدث ، وأنا لم أفعل شيئاً إلا عليه ؟ جال
كل ذلك بخاطري وشاعت الهواجس في نفسي وأنا رجل شرقي أحسب
حساباً لكل خطوة في مثل هذه الأمور ، وأعرف عواقب هذه المقابلات
وأنا مازت كذلك عضو بعثة وأخشى على مستقبلتي ، فماذا عسى أن
تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طنقت أفكر وأخذت رأسي بين
يدي وجعلت ألعن صاحبة المنزل وأنهي باللوم على نفسي أن قبلت

اقتراحها ؛ وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بي لأني حدث عن الطريق التي رسمها لي أبي . وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتي ، واملأها استبطأني وقالت :

« أسرع يامستر ريدي ، فإن والد نورا في انتظارك ! »
أفقت من أحلامي ، وبدأت ملابسي ثم استجمعت شجاعتي وسرت في خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلا فارع الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلي ويشد على يدي في شيء من القوة ، ثم جلس وجاست ، وبعد فترة غير قصيرة قال لي في هدوء :

« لقد أخبرتني نورا كل شيء ! »

ولم يكده يتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولكنه عاد يقول :
« إنك كنت كريما ياسيدي مع ابنتي ، وقد أخبرتني عن عنايتك بها ، وكيف أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك . وفي الحق يا بني أني لا أستطيع أن أفيك حقا من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتي في جو يسوده الهدوء في منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من أهالى القرية ، ولم يكن شيء من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . وبرت أسرتي بهذا الهدوء المطلق وبخاصة زوجتى فلم أجد بدا من أن أدعو أحد معارفى ليقم معنا ونتقاضى منه أجرا فلا يستشعر خجلا في ضيافتى التي قد تطول . وهذه عادة بلادنا نعهد إليها لتغير من جو الضجر ونقلل من هذا السكون الممل . وها قد عاد إلى

بينتنا شيء من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل ، لأنه سرى
عن زوجي وابنتي الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذي
فقت به نحو نورا ! »

ووقف الرجل وسلم وانصرف وأنا لأصدق أنه ما حضر حقاً إلا لشكر
وأخيراً انقشعت وساوسي وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتمم بعض البحوث الخاصة برسالة
الدكتوراه التي اعتزمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقضت
أخبار نورا عني ولم نراسل طوال هذه المدة ؛ ثم عدت إلى ليدز وقابلت
الفتاة مصادفة ، فقالت لي إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها
الجديد في المدينة وتركتني مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها .
ووقفت هنيهة أتبعها بنظري وأنا لا أفهم مما قالت شيئاً ! ثم رجعت إلى
غرفتي ، ودعوت صاحبة المنزل وأعدت على سمعها هذه الجملة التي قالتها
نورا ، ورجوتها أن تفسر لي هذا اللغز وهل يستطيع الإنسان في هذه
البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد؟ فضحكت وقالت لي :

« ليس في هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك

والد نورا أنه ضم إلى أسرته ضيفاً ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج
إلى زوجته وقد نمت إليه بعض إشاعات ، أو لعله لحظ شيئاً من التغير في
سلوك زوجته ، فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ،
وانخير أن يطلبوا إليه - بعد أن ينتحلوا له المعاذير - أن يخلى غرفته . ولعله
لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك في أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد

يقدم من يطالب يد واحدة منهما ، واستحلفتها بحبه أن تجيبه إلى طلبه .
أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن
تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف ، ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها
وقال لها : « إنما أتاكم عن رجل استأجر غرفة في منزلنا ، لا عن عشيق
يقيم تحت سقف بيتي بين زوجي وابنتي ! وهل أستطيع أن أفهم من
قوالك هذا ، أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحيني بكل
ما حدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم مالبت أن قالت لزوجها
إنها تحب هذا الرجل ، وإنما لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة
واحدة ! فاعتلجت في صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت
تتناوبه . وأخيراً انقصر عنصر الخير في صدر الرجل الذي كان يحب زوجته
ويعبدها ، فاعتدل في مكانه وقال لها : « أوانقة يا عزيزتي أنه يبادلك
هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجأها زوجها أن تدعو الضيف إلى
مقابله على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ما حدث ، ويقول
إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه في حدة وصرامة ، وقال له :
« لقد عرفت كل شيء ولست أوماك أو ألومها على عاطفة جاحجة كثيراً
ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لي إلا أن ألوم نفسي ،
فأنا الذي مهدت لكل ما حدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين .
ولست أفكر ياسيدي في الانتقام من أحد بعد أن أربت سني على
الخمسين ، ولا أذكر أن فؤادي انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما
كان لي عرف موحدة أو يكن حفيظة . ولندع الكلام في هذا جانباً ،

وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لي بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدني على ذلك كرجل شريف ؟ فإني أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تبيش خليلتي ! »

وهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، ونزج شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق ، وخيم على جوار الفرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك ياسيدي ! » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، وأما حاول الكلام فلم يقم عليه وأخيراً رجع أمام الزوج وفي عينيه دموع وأجفاس يبكي وطلب إليه أن ينفر له زنته ! فمهره الزوج وقال له في خشونة : « ما لهذا طالبت الانفراد بك ؟ وإني أطلبك الآن بأن تجيب على أسئلتى ! » فوقف الضيف ومضى يتشر واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : « أجل ! إني أحبها وسأزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج ! » فتعمم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلي بينه وبين نفسه يشد أزرعها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج في صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذي رسمه لزوجته ولهذا الرجل المائل أمامه ؛ أو لعل في صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين الخلقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالمعطف والحب لأسرته الوادعة !

وخرج الرجلان واقترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمراً أسره في نفسه ؛ وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجته وقدم

لها وثيقة وقال لها : « ستجدين في هذه الوثيقة يا عزيزتي ما تقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى المهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام في أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا في الوثيقة - فما عليك إلا أن تتقدمي بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ؛ وستنزل على لعنة القاضي ؛ ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلي عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعد انقضاءها » ثم قبل زوجته وابنتيه ؛ وجهد الدمع فى عينيه ورح المنزل بعد أن قدم لها هذه التوضيحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها .
وها أنت ذا ترى أن كل شيء قد تم - كما أراد الزوج وأرادت الزوجة - وها هى ذا نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ؛ وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله !

وسكنت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ؛ وما زالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجه وابنتيه ، والذى غير الجوى الهادىء الممل ، والذى سلبه أخيراً قلب زوجه التى أحبها وما زال يحبها !

هذا كساء الموتى 11

لقد كان أبي صيادا من أولئك الذين يذرعون شواطئ البرك والمصارف تحت وهج الشمس ، ومعهم شبا كههم يبتغون من الله الرزق الحلال . وكثيرا ما كان يقطع يومه حافي القدمين ، ويعود إلينا في المساء ونحن تسعة أطفال ، وقد جالسنا حول أمنا ، ولم نكن قد تبللنا في يومنا إلا بقطعه خبز مع شيء من الملح . كنا ننتظر قدومه وقد طلع علينا في لباسه الأزرق الزرى ، وكانت سحنته في ذلك المساء لا تبشر بخير ، فإنه لم يقرئنا السلام كهأدته ، بل وضع شبا كه ومقطفه . فهرولنا إليه فلم يعرنا التفاته واحدة ، ودخل القاعة وجلس على الأرض وأخفى وجهه بين كتفيه ، ولعله كان يبكي . أما نحن فهرعنا إلى المقطف ونظرنا فيه فلم نعثر على الرزق الحلال ، وأدركنا أننا سنمضي ليلتنا هذه نخاص البطون . وأنى لأدرك الآن — وقد كنت يومذاك طفلا صغيرا — ما عاناه أبي من شظف العيش وبؤس احياء ، وما عانته أمى كذلك ، فقد أنجبت لهذه الدنيا تسعة أطفال أفنوا شبابها ، وقد كان عليها أن تعمل ليل نهار في الحقل ، وفي بيت العمده أمام الفرن ، ثم تعود إلينا وهى تسعل ، وكان على إخوتى أن يعملوا هم أيضا أعمالا شاقه لا تتفق وجسمهم النحيل فى هذه السن الصغير . أما أبى فلم يكن رجه كثيرا فى عمله ، ولعله ناء بهذا الحمل الثقيل ، فما كان ليستطيع أن يمدحنا القليل من مطالبنا الضرورية ، فما هو إلا سلامة فى سوق الحياة اليومية

يرتفع سمعه ويهبط تبعا لما تجود به عليه شباكه . واني لأضحك
ضحكا كالبكاء عند ما أتذكر فكاهة هذا الصياد الذي ظل طول يومه
يرمي شباكه ولم يظفر بشيء ، وقبل الغروب بقليل ألقاها للمرة الأخيرة
وأخرجها فإذا فيها نمل قديمة ، فاعتناظ المسكين لذلك وحنق أشد الحنق
لهذا اللفظ المائر ، ثم ضحك وتمالك نفسه ، ولف الخداه في قليل من
الحشائش ، وذهب إلى السوق ، وعرض رزقه الحلال على الناس ،
فدهشوا بجرأته ووقاحته ، وحسبوه مجنوناً ، ولكن الرجل وقف فيهم
صائحاً : يا قوم إنكم تشترون قنفذ البحر وبلح البحر فلم لا تشترون
نعال البحر ! ! .

وها هو ذا أبي المسكين لم يظفر الليلة حتى ينعال البحر ، فهو
لا يساوى في (البورصة) البشرية عن هذا الخداه القديم
في هذه الليلة التي غاب قمرها ، واكفهرت سماؤها ، ثلثنا كما تنام الأنعام
الضالة وصبحونا في الصباح على عويل أئنا ، فقد كانت المسكينه تنسحب
وقد سألت عبراتها . ولما سألتها عن سبب حزنها قالت في مرارة
(إن أباكم قد عزم على هجر هذه القرية بعد أن شق عليه العيش فيها)
خرج أبي من موطنه يهيم على وجهه ولم أره بعد ذلك ثم سمعنا بعد مدة
طويلاً أنه وجد جثة هامدة تطافو على النيل ، ولما عرف عن هذه
النكبة سائر من قوره - رغم كفافه - إلى هناك ودفن والدي
واحضر هذا الصبي الذي هو أخي من أبي ، وعاد يحمل لنا أخاً بكنا لم نره
من قبل ، وأسطوره عن حياه أبي في غربته . أما الأخ الأكبر ، فقد

تعلم صناعة أبيه وعرف بين الصيادين بأنه واسع الرزق جد محظوظ
كأنما يساق السمك إليه سوقا وكان رفاقه يتهامون ويرحفون بأن
جنية تدفع السمك إلى شباكهم ؛ ولما لم يلبث أن اختفى من القرية
دون أن يعرف مصيره . وأما الأسطورة فتقول إن أبي لما وصل إلى
مستقره الجديد قصد على عادته إلى مصلاه عند الشاطئ بين يدي ربه
خاشعا متورعا مقبلا بكل حواسه وروحه وقلبه على صلواته ، وصرفه
الموقف من كل ما حوله فلا يسمع من نبرات الحياة إلا همسات الموج
ولا يمر به من شأنها إلا خطرات النسيم ، ولم يكذب بختم الصلاة ويقراً
السلام حتى انفرج له ألم عن محيا لمسح وجسم غض قد أسدلت عليه
غداثر فاحمه ، فشهده الشيخ ، ولكن إنسانة اليم ما لبثت أن دلفت إليه
واظهرت عطفها عليه فهدأ روعه وأرجع فيها البصر ، فإذا هي خلق
عجيب نصفه سمكة ونصفه بشر . . . وتعلقت به فحملها معه إلى بيته في
غفلة العيون ، وجعلت تتراءى له في صورته مؤنسه ، فلم يجد بأسا من أن
يتخذها زوجة وظلت هذه الزيجة قائمة بضع سنين أحس فيها الشيخ أنه في
جنة الخلد ، فما مر بمخاطره شيء تتوق إليه نفسه إلا وجدته حاضرا لديه .
رغم أن حور بيته في هذه الجنة لم تكن لتتفاهم معه بلسان ولم يسمع لصوتها
نبره وأنجب الشيخ من حورائه ولداً لم يرث من أمه شيئا من حسناتها ، ولكن
منى ببيكها . ومر حين والشيخ لسره حافظ ولأمره كاتم ، إلى أن كان
يوم خلا فيه بأحد خلصائه فافضى إليه بسريرة نفسه وشكا إليه صمت
زوجته فدله ذلك الصديق على حيلة شيطانية تخرجها من صمتها . وأوصاه

أن يتظاهر بذبح ولدها . ولم يكده يضع السكين على عنق الطفل حتى .
صاحت صبيحة أوتعت السكين من يده وثارت ثأرتها وأمرته أن يعيدها
إلى اليم ، فحملها والأفاس هادئة ، وقد أذنت صفحة البدر أن تزول .
وجنحت أسراب النجوم الى الأفول ، وبدأت جزوه الفجر تدب في
فحمة الليل حتى اذا أدركا اليم غاصت واختفت ثم انقطعت أخبار الرجل .
حينما إلى أن ظهرت جثته طافية على الماء . ظلت أسرتى البائسه تعاني .
ما تعاني حتى قبض الله لنا بعض أهل الخير والإحسان . ولكن والدتي .
لم تعش طويلا لأنها أصيبت بذات الرئة ، مرض الفقر والجوع ، وهيئات .
لها أن تقاوم هذه العلة بمعهه خاويه وعمل يومي شاق دون أن يكلاها .
طبيب بطبه ورعايته .

وهب أنا استدعينا لها طبيبا وهي مصابه بهذا الداء الويل حيث
تحتاج راحة تامة وتغذية كاملة ، أتراها لو أجدى طبه ودواؤه في أنقاذها
من الداء واجده ما تحتاجه من الراحة في دور نقاهتها الطويل ، وهي
مضطره أن تعمل وتشتقى لتحصل على قوت يومها .

ولو استدعى الطبيب ليهود ثريه بدينه متخمة أمرضتها كثرة الأكل
وقله العمل . أتراه يأمرها بأن تحمد من راحتها ، وتريح سيارتها وطاھيها
ووسائل ترفها ، ليجدى طبه وعلاجه . . ؟

مريضتان : إحداهما تموت شهيا على وسائدها الحريرية في قصرها
والاخرى تموت جوعاً على كومه من القش في كوخها فما جدوى الطب
والطبيب في مثل هاتين الحالتين فمرضة الشبع والتخمة لا ترضى النزول .

على مشورة الطبيب اختياراً ومريضه الجوع لا تستطيع تلبية نصائحه فقرا وإملاقا ماتت مريضه الكوخ. ودنعت الإنسانيه قابا مرهناً تكفل بالسكنن ، فهلل أخى الصغير وابتسم ابتسامه الملائكه الطاهره وهو لا يدرك فى طهارته الموت ولا لباسه الجديد وحسب السكفن ثوبا جديدا يكسو جسمه العارى . ولكن الابتسامه ماتت على شفثيه وفرت من عينيه دمعه ساخنه حين قيل له « هذا كساء الموتى ، إذا أردت أن تكسى منه فمت . مت لتلبس رداء جديدا وتخلع عنك اسمالك الباليه ! ! » .

شرعت أخرج مع أخوتى نصطاد السمك كما كان يفعل أبونا ولم يكن حفظنا أسعد من حفظه ، فيخرج بعضنا بالشبك ويخرج البعض الآخر بعجينه السمك المسممة ليلقيها فى البركه فيلتهمها السمك الجائع مثلنا ، ويطفو على سطح الماء ، وقد انقلب على جنبيه بعد أن عمل فيه السم فخذر أو مات . وكان علينا أن نهبط الماء ونجمع هذا السمك المريض أو الميت ونبيعه للناس أو نأكله . وفى هذا ما فيه من خطر على الحياه العامه . فكم من ضحايا بريئه ذهبت على أثرأكله سمك ! ولكن الناس لا يقيسون وزناً لما يمكن أن يقال لهم فى صدد هذه الأسماك التى سممتها العجينة . فهم سعداء إذ يصيبون شيئاً منها . وهل للفقير أن يختار ما يأكله ، وعندى أنه قد فقد حاسة التمييز بين الضار والنافع ، فهو يأكل كل شىء كما تفعل الصراصير والخنازير .

مكثت بالتقريره وأنا أعمل فى صيد السمك ، كما أنى لم أغفل عن

التعاليم ، فكنت أتردد على (الكتاب) ، وتعلمت الكثير ثم تآقت
نفسى بعد أن اشتد عودى إلى الرحيل من هذه القرية التى جثم فوقها
الفقر ، ولم يجد الإنسان فيها ما يشبعه حتى اضطرت الكلاب والنقط
فيها إلى المهادنه ؛ إذ لم يكن فى تلك القرية من غذاء حيوانى لهذه
المخلوقات يمكن أن يبعث بينها شجاراً ، فعمدت إلى السلام والتعاون
فأصبحت الكلبه ترضع صغار القطه والقطه تعنى بأجراء الكلبه ،
وانقلبت هذه الحيوانات آكلات أعشاب وفقدت أنيابها وما لها من
قوة وحده . وما تدرى فقد تصبح هذه الحيوانات مجتره كغيرها من
البقر والجاموس والماعز .

خرجت من القرية غير أسف بعد أن ودعت إخوتى وذرفت الدمع
السخين على قبر والدتى ، ووقفت بعد جهاد طويل وكفاح مر مع القدر
إلى عمل فى إحدى المراكب التى تحمل العسل إلى العاصمة ، ثم بسم
لى الدهر بعد عبوسه ، فعملت بحاراً فى إحدى السفن الشراعية الكبيرة
فوزرت اليونان والشام وغيرها ، ثم سكت محدثنا ووضع رأسه بين يديه
وبكى طويلاً ، فقد بعث الماضى بذكرياته الأليمه . ثم رفع رأسه وقد
احمرت عيناه وشاركه الأفق فى حزنه ، فتورد هو أيضاً وكذلك فعلت
الشمس فاحمر قرصها .

ولم تلبث أن أختفت وراء الأفق ، كما تتوارى الألام فى
أغوار النفوس .

من بوميات مهروسي :

العزول

أول يونيه عام ١٩٣١ :

ذهبت اليوم مبكرا إلى المدرسة على غير عادتي . حيث يبدأ عملي في الساعة التاسعة ، وكان بواب المدرسة « عم خالد » واقفا عند الباب فبادرني بالتحية وأسر إلى هذه الكلمة « مفتش يا بيك » فسألته من أي نوع فأجاب « وش جديد لا أعرفه » .

فأسرعت مهرولا في مشيتي والبواب يعجب لهذا التغير الفجائي الذي أعترائني ، ودخلت المدرسة فوجدت جميع الزملاء يروحون ويحيثون في حركات عصبية غريبة يصعدون أوامر للفراشين لتحضير الدروس . وكان المنظر غير عادي كأنه استعداد لمصائب خفيه وذهبت إلى العمل وطلبت من الفرش أحضار طباشير ماون ، وأرنب ، وناقوس زجاجي ، وكلوروفورم ، وعلبة تشریح . وأمسكت كراسية التحضير ودونت فيها كل ما فاتني تدوينه مما وعته الذاكره . ثم أنتشرت في أرجاء المدرسة أشاعة وجود (المفتش) ولم يعرب أحد منا مهمة المفتش وأعتبرناه مبعوثا للجميع وقصدت حجرة المدرسين فوجدت الجميع منهمكين في تحضير الدروس يتخاطفون محبرة الحبر الأحمر والأخضر والأصفر لتزيين كراسية التحضير التي تعتمدها الوزارة كل شيء مع أنها لا تؤدي رساله ما . وكثيرا ما تدون فيها دروس لا تلقى البتة على التلاميذ .

كل هذا كان يحدث بين المدرسين بينما كان المفتش يجلس في قاعة الناظر وفي فمه سيجاره يدخنها . وكان صامتا طوال الوقت والناظر يعرض عليه في أدب جم أحوال المدرسة وسير الدراسة فيها . ثم أرسل الساعي إلى منزله ليعدوا غداء خاصا للباك المفتش . ودق جرس الحصة الاولى فذهب المدرسون إلى الفصول كل يتربع الزيارة المشؤومة . وانتهت الحصة الاولى ، وذهبت إلى العمل ، ودخل التلاميذ . فطلبت إليهم المحافظة على النظام ، والسكوت ، وهددتهم بالعقاب . وبدأت في القاء الدرس فأسر أحد الاشقياء إلى زميل آخر كلمات لم أفهمها . والتلاميذ يعرفون بدورهم أن المفتش أنما يحضر ليختبر المدرس ولذلك يعمل بعضهم لضغينة ما إلى أدعاء الجهل في حضرة المفتش . وقد يلقي أحدهم بعض أسئلة مخرجه على المدرس ، كما يحدث أن يمر المفتش بين صفوفهم لفحص كراساتهم فيدلون إليه بأكاذيب باطلة . وكنت وأنا التي الدرس أراقب الباب واتسمع إلى الخطى في الخارج . وكنت أطلب إلى التلاميذ الوقوف لتحية المفتش حين أطل الفراش برأسه يطلب ورقة الغياب وقد ساءلت نفسي :

لم كل هذا الخوف من الطارق الجديد؟؟ فالناظر يخاف هو الآخر من المفتش والمفتش يخاف من المراقب والمراقب يحسب حسابا لو وكيل الوزارة وما يحدث في وزارة المعارف يحدث أيضا في أية وزارة أخرى وفي أية بيئة أخرى . وكل شيء في الشرق أساسه الخوف والوعيد . والكراهية المتبادلة ، فالمدرس يصب جام غضبه على التلاميذ لأنه هو الآخر مهتد

من رؤسائه ، ولو أننا عودنا منذ الصغر حمل المسؤولية كواجب وطني بشيء من الترغيب والملاطفة ، واللين ، والوعد بمكافأة من يحسن عمله لأصبحنا كغيرنا من الأجانب نؤدى واجبنا على الوجه الأكل فكلنا يعرف الفرق بين الإنجليزي والمصرى مثلاً . وملك تلمس هذا في المدرسة ففتش اللغة الإنجليزية مثلاً يجالس المدرسين ويأنسون إليه ويفرحون بمقدمه . ويولون له الولائم ويلعبونه التنس والورق . و يصارحونه ويصارحهم ويطلبون إليه مطالب فلما ترفض كل ذلك يرجع إلى أن الطفل الإنجليزي لم يدرج في مهده الخوف ولم يتعلم بالتهديد والوعيد وهو لا يعرف العفريت ، ولا الخوف من الظلام .

دق الجرس معلنا أنتهاء الدرس فخرج المدرسون إلى ردهة المدرسة ولم يعرف أحد بعد مهمة هذا المفتش لأن أحداً منا لم ينعم بهذه الزيارة وأخيراً عيل صبرنا ولم تجد بداً من أستطلاع أمر هذا المفتش الجديد وما أن عثرنا بأحد ضباط المدرسه وكان له دالة على الناظر فرجونه أقتحام غرفته . وما أن دخل وغاب حتى خرج إلينا بجر البيك المفتش ممسكاً بتلابيبه وهو يضحك ويقهقه مفتش سيما ياببهوات ، لا يضر ولا ينفع ، ويأريت كل المفتشين كده .

يناير سنة ١٩٣٣

سافرنا لحضور مباراة كرة القدم بين فريق مدرستنا وفريق مدرسة أخرى وتصادف أن كانت بهذه المدينة فرقة تمثيل ، وأتفق أن خرجنا بعد العشاء للترويج عن النفس . فلنفت أنظارنا جمع من الناس أحتشدو

أمام باب إحدى المقاهي ، وقد علق عليه إعلان كبير عن اسم الفرقة ورواية صلاح الدين الأيوبي ، وأسعار الدخول . . . ، وكان بين هذا الجمع رجل في لباس التمثيل وقد علا الهرج داخل القهوة وكثر التصفيق والصفير من جماعة النظارة ، وخرج البعض إلى الشارع والتف الناس حول وزير بيت التمثيل وزير الملك العادل صلاح الدين العظيم ، وتقدمنا من هذه الجموع المحتشدة وسمعنا منهم نقرأ يقنع الوزير بالعودة إلى خشبة المسرح ، ويقول: أن الستار على وشك الأرتفاع وأحتمد الجدال ، وصاح الوزير بصوت مخنق كيف يستطيع التمثيل وهو لم يذق طعاماً منذ أمس . . . وأعتذر عن القيام بهذا الدور ، لأن الأولى به أن يمثل دور الصائم ، وكان منظر الوزير يتم عن ألم دفين وأخيراً صاح أحد النظارة وكان نشوان (مفيش سميطة يا هوه . . . لصاحب المعالي) .

وكان لهذا المنظر أثره في نفسي وجعلت استعرض شتى المأسى والصور وتذكرت ما تعانيه هذه الهياكل البشرية من صنوف العذاب والبؤس ، وكثيراً ما كنا نكتب لهم بالقليل من المسال ، لنجمع لهم أجور ترحيلهم إلى العاصمة وهم روميو وجوليت وفنانون وفلاسفة على خشبة المسرح وكلهم صحايا نفر قليل يجلبونهم من العاصمة الزاخرة كما أنهم سلع باثرة ويموهون عليهم ويدخلون في روعهم أنهم سيصيبون رزقا وفيراً ، وما يزالون يجوبون بهم البلاد النائبة يعرضونهم على الناس لقاء ربح قليل أو كثير . وكأني بهؤلاء الفنانين دمي صخرية أوهم في غيبوبه لا يشعرون بما حولهم ، ولا يأكلون ولا يشربون ، وما زالت

تتتابع ، أمام نظري هذه الصورة الحزينة . . . التي جعلتني أتذكر زملاء
لى فى المهنة يعانون أكثر مما يعانى هؤلاء الفنانون على مسرح التعليم ،
ولعل من هؤلاء الزملاء المساكين من يصل طول يومه يلقي العظات
والدروس وهو خاوى الوفاض بيت على الطوى ، ولعل من بينهم أيضا
من يتمرد ويشور ويفارق الفصل ويحاول نفر من أخوانه أن يقنعوه
بالعودة إلى الفصل ليعاود الدرس ويخرج وراءه تلاميذه يجرونه من
تلاميذه ، ويكثر الهرج وتسود الفوضى وترتفع الجلبة ، ولعل من بين
هذه الجموع المحتشدة من يصبح فى غيره نشوء « مفيش سميطة ياهوه
للمعلم . . . » .

٢٠ فبراير سنة ١٩٣٣

كنت فى مدرسة بأحدى عواصم الصعيد . وكان بها نسبة لا بأس
بها من الخدم كلهم من قرية واحدة فى الوجه البحرى . ويقال : أن
هذه القرية مسقط رأس شخصية باره بأهلها وبهذه المناسبة أذكر أن
أحد مفتشى الوزارة مر بالمدرسة ، وصارحنا أنه موفد من قبل أحد
المسؤولين فى الديوان العام ، لقطع عيش بعض الخدم واحلال آخرين
محلهم .

وأخيراً فرض على هذه المدرسة فراش منوفى أثرى بعد زمن وجيز
وقد اشتهر هذا الرجل ببخله وتكالبه على جمع المال وبلغ من
حرصه ودقته أنه لا يخرج مالا دون رهن ، وحدث مراراً أن سئل أحد
الفراشين عن الوقت فأجاب بان ساعته مكسورة ، وقد يتاخر جرس

الخصية ، فيعتذر المكلف بهذا بأن ساعته مفقوده . وهذا الجواب عن الساعة المفقودة والمكسورة يتكرر دائما بعد اليوم العاشر من كل شهر ، وقد بدأت الدوائر في المدرسه تهتم بهذه الظاهره العجيبه وأخيراً أكتشف أمرها وأتضح أن هذا الفراش المنوفى يقرض زملاءه قرضاً فاحشاً ويرهن الساعات عشرين يوماً لا يفك عقابها الا في أول الشهر وبتنظيم الوقت فقط في المدرسه مدة عشرة أيام والحمد لله على أن ساعات المدرسين لم ترهن بعد ، ولكن اليسوا هم الآخريين في ضنك شديد وما أحوجهم إلى زميل مراب يمدهم عند عوزهم .

الواقع أن مهنة المدرس مهنة شاقه وهو مطالب دائماً أن يقول : كلاماً معقولاً منطقياً يبدأ بالجرس وينتهي بالجرس ، ومن الذي يستطيع أن يقول : دائماً كلاماً معقولاً ؟ وهو مطالب أن يضبط عواطفه وأن يجعل من هذه العقول المتفاوتة في الغباء (عقول تلاميذه) عقلاً واحداً يتفهم ما يدلى إليه وهو مطالب أن يتكلم في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى السكوت وهو في كل هذا قانع مطيع لا يطلب شيئاً مقابل هذه التضحيات الجسام وهو أن ظفر بشيء في مهنته هذه فانما يظفر بالعايات والأمراض وقل أن يسلم منها ، والناس يحسدونه على أنه يتمتع بعطلة سنويه ولو أنصفوا لعلموا أنهم ظالمون فما أحوج المدرس إلى عطلة أطول يقضيها في إحدى مستشفيات الأمراض العقلية فهو من مهنته في حرب مع أعصابه .

وفرض على المدرسه فيمن فرض بستاني تحسبه لنحول جسمه ميتاً

بعت لساعته من قبره وهو لم يحذق من فنّه الا العمامة الصفراء التي
يلبسها عادة أبناء طائفته ، وكان الرجل قاسيا على كل ما حوله . على
الناس والحيوان حتى على النبات وأطلق عليه تلاميذ المدرسة وكثيرا
ما يطلقون أسماء هزلية في بيئتهم . اسم الشيخ زحل ، وكان لهذا الشيخ زحل
أراء ومشاريع لكنها خيالية ، وكان يشكو دائما من قلة الأيدي العاملة
معه في حدائق المدرسة ، وطلب منا لاصلاح الأرض أن نقلبها رأساً
على عقب وأن يمدّها بطمي جديد ، وهو لهذا في حاجة إلى ثلاثين عاملا
يعملون معه مدة شهر أو أكثر فحققنا له مطلبه . وذات يوم حضر هؤلاء
العمال في شبه ثوره يضحجون ويصخبون وعلت أصواتهم بالشكوى
ولما سئلوا عن سبب هذا . قالوا : أن الشيخ زحل قد فرض عليهم
دفع ضريبة يومية يتقاضاها منهم ، وكل من يمتنع عن الدفع يعاقب
بالطرد والحرمان ، والغريب في أمر الشيخ زحل أنه لم ينكر ما نسب
إليه . وقال : في صراحة أني لم أفعل أكثر مما فعله معي رؤسائي ، فقد
غرضوا على مقابل هذه الوظيفة أن أدفع مرتب أربعة شهور مقدما وها أنذا
أحصل هذا المبلغ من هؤلاء التعساء .

ولادة ولادة

١٠ مارس سنة ١٩٣٤

مرت على حوادث هذا اليوم أكثر من ثلاث سنوات . ولا تزال ذكرياته ما ثلثه أمامي مفعمة بصنوف شتى من الجلد والهزل .

حضرت إلى القاهرة في زيارة قصيرة نزلت فيها ضيفا على طبيب تربطني به صداقة قديمة ، وفجأة قال : لي هذا الصديق بعد أن وضع سماعة التليفون لقد استدعوني لانقاذ حياتها فقاطعته قائلا : حياة من ؟ فأجابني على الفور سأسطحباك معي في نزهة قصيرة إلى إحدى ضواحي القاهرة . على شرط أن تلزم الصمت ، وأن تكف عن القاء الأسئلة فمأهدته على ذلك ، وأنطلقت بنا السيارة تطوى الأرض حتى وقفت أمام « فيلا » فخمة تحيط بها حديقة غناء ولقت نظري وجود عدد كبير من السيارات من موديل سنة ١٩٥٠ ، وكانت الحديقة تروج بأنسات وسيدات الطبقة الراقية ، وقد تناثر هنا وهناك زوج أبله .

كان كل شيء في الحديقة طبيعيا إلا هؤلاء الأدميين تحسبهم لما بينهم من شبه عجيب كأنهم صنعوا في إحدى مصانع فورد بأمر يكا وكأنهم صبوا في قالب واحد يتكلمون كلاما مخصوصا لا يفهمه غيرهم وجوه شاحبه أختفت تجعداتها تحت المساحيق واسنان وأصابع مصفرة من كثرة ما علق بها من آثار التبغ .

قال : صديقي لم يخطئني الحدس ، فقد حضر كذلك أساطين الطب

وغيرهم من عليه القوم ورجال العلم فلم أشأ أن أسأله ، وقد عيل صبرى
من لهجته وطريقته المصطنعة في الألقاء ، وقد اشتهر بيننا باسم الممثل
كين ، وما عسى أن يكون هؤلاء فلان دكتوراه في اللغة العربية من
أحدى جامعات أيسلاند أو جزر الشيطان أو بلاد واق الواق أو بلاد
تركب الأفيال ، ويشغل الآن وظيفة مدير أعمال في مصلحة الحجارى ،
وقلان دكتوراه في تعبئة الصجوه والبطيخ واستخراج الدهن من الصوف
من جامعة كاليفورينا ، ويعمل الآن في مصنع زجاج ، وهذا السيد
الواقف هنالك عضو في أكثر من جمعية علمية ، وقد توصل أخيراً إلى
إطالة عمر بعض أنواع الخنافس والصراصير بتقديم غذاء لها خال من
الفيتامين ، وهو مع ذلك موظف كبير ، وهذه السيدة الثرثرة الجلاسة
على المقعد الخشبي تدخن كأنها القاطرة ، وتتكلم الفرنسية كما تتكلمها
بقرة دمياطية . استنبطت طريقة جديدة لحياكة الفساتين من غير ما
قماش وملابس عارية ولعلها أول من استعمل كلمة بنجور في ظلام الليل
البهيم بين أشجار الجيز والسنت ، وقد اختفى القمر .

كنت اسمع بين آونة وأخرى أهات وأنات وتبهذات يعتلج بها
صدر سيدة نصف . التف حولها جمع من السيدات تأثرت لمراها ، وقد
بدت حزينة واجمة لكثرة ما استنفدت من دمع سخين ، وكنت أسمع
اسم سوسى ترزده هذه الشفاة المصبوغة فجعلت أردد معها متوسلاً إلى
الله أن يكشف هذه الغمة وأن يحفظ لهذه الأم وحيدتها . كان الخدم
يروجون ويجيئون في شبة حركة إليه يؤمرون فيطيعون وكان على

هذا أن يسبق الريح ليحضر مصلا ، وعلى ذلك أن يعدو لييجيء بالمسكنات ، وكان علينا جميعا أن نخفت الصوت لنمهد لراحة المريضة وبعد هنيهة خرج أحد الأطباء وأسر في أذن زوج معتوه بعض الكلمات وتركه ، وقد تهلت أسارير وجهه بالبشر والفرح ، وتقدم هذا من ربة الدار مهنتا . وقال لها : لقد أنقذت وتحققت المعجزة وأخرج منها الجنين ميتا ، وقد استطاعوا أنقاذ حياة وليد آخر .

عم السرور وتقابلت الأيدي والشفاه بالتهنئة والتبجيل ، ووعدت ربة الدار أن تقيم سبوعا حافلا بالشمبانيا وجميع أنواع التسلية . خرج صديقي وخرجت معه ولم أطق صبرا وسألته عن سر هذا كله فقال لي : لقد أنقذناها ووحيدها بعد صراع مع الموت وتجلت المعجزة الكبرى .

فقلت : أنقذت من ؟ ؟ فاجاب أنقذت الكلبة سوسى كلبة صاحبة البيت . . . فمذوره لقد فاتني أن أنوه أن صديقي طيب بيطرى .

وفي مكان آخر من وادي النيل السعيد تركت امرأة بأئسة تعاني الام الوضع وتطالب الموت ، وقد التف حولها بعض النسوة من الجيران في ثياب سود كأنهن لقرط الكتابة بوم وغربان .

حضرت عربة المستوصف ، وتقدمت أسعدى القابلات ، وفحصت المريضة وقالت : في تأثر عميق « ولادة متمسرة » ونصحت باستدعاء

الطبيب المختص فوراً وأسرعت بالخروج من هذا الجو الموحش فذهب ابن المريضة للتو إلى أحد الأطباء يستدعيه ، واشترط هذا الأخير أن ينقد أجره مقدماً ، ونظراً لغياب الأب في سفر طويل لم يكن ذلك ممكناً طبعاً ، وفارقت المسكينة الحياة بعد ولادة شاذة عسيرة اشتركت فيها امرأة عجوز من الجيران ، وشاع هذا الخبر في المدينة ، وبلغ مسامع الرؤساء ، وكان على الطبيب أن يختار بين الاستقالة « وادفو » ولكن شيئاً من هذا لم يحصل ، فقد سارع الطبيب ، وخطب وتزوج إحدى بنات من استطاع استبدال كل هذا بنقل الطبيب إلى القاهرة ينعم بها وبمحاسنها .

محتويات الكتاب

صفحة

١	الرقص فوق الأعماق
١٦	مصرع امرأة
٢٢	الشعبان البشري
٣١	الانتقام البارد
٣٧	حب في الخريف
٤٢	المنتظرة
٥١	الاعتراف
٥٥	الجثة الحية
٦١	الأسماك الجائمة
٦٨	بيت الشموع
٧٢	التثال الثالث عشر
٨١	فرخة توت
٩١	الكلب الرخيص
١٠٢	الشخص الثالث
١١١	هذا كساء الموقى
١١٧	العزول
١٢٤	ولادة وولادة